الفصل الثالث

مؤسسات تعليم الكبار عند المسلمين

تمهيد

الكُتّاب

البيوت الخاصة

المساجد

القصور

دكاكين الوراقين

المكتبات

الربط والزوايا والخوانق

البيمارستانات

المدارس

الفصل الثالث

مؤسسات تعليم الكبار عند المسلمين

تمهيد

إنّ نظرة الإسلام المتميزة للإنسان والعلم، مكّنت الدعوة الإسلامية من أن تكون صاحبة الفضل الأكبر في انطلاقة حركة التعلُّم والتعليم في المجتمع العربي. ولقد «أعاد الإسلام صياغة شخصية الإنسان ففجر طاقاته الإبداعية الكامنة من أجل العلم والعمل لبناء حضارة إنسانية متوازنة. وكانت نظرية المعرفة الإسلامية بشمولها وتكاملها واتساقها وسيلة لأحداث التغيير الجذري في كيان الإنسان وبنية المجتمع، تلك النظرية التي غرس القرآن بذرتها وعبّرت عنها «السنّة» في تاريخ فجر الإسلام»[1].

فالعلم والتعلّم من الواجبات المقدسة عند المسلمين، وهو فرض كفاية يحاسبون عليه في حال لم تقم طائفة منهم نيابة عن الباقين بهذا الواجب، «وإذا كان طلب العلم فريضة فإنّ تهيئة أسباب العلم والتعليم فريضة كذلك، لأنّ ما لا يتم الواجب إلّا به يكون واجباً. وقد حرص المسلمون في جميع عصور تاريخهم، ومختلف أقطارهم على القيام بهذا الواجب أفراداً وجماعات حُكاماً ومحكومين. والتاريخ شاهد على أنّ الاتفاق على العلم وتكريم العلماء وتشجيع المتعلمين والطلاب كان يتنافس فيه المسلمون ويتعاونون جميعاً»[2].

---

(1) أكرم ضياء العمري: «**التعليم في عصر السيرة والراشدين**»، في **التربية العربية لإسلامية والمؤسسات والممارسات**، 1/ 64.

(2) محمد الفيصل آل سعود: «**القرآن الكريم أساس التربية الإسلامية**»، في **التعليم الإسلامي أهدافه ومقاصده**، ص: 174.

وكان الرسول ﷺ رائد المسلمين وقدوتهم في تكريس هذا المنهج التربوي. فلقد أدرك النبي ﷺ من اللحظة الأولى إنّه إنّما بعث معلماً، والتعليم وظيفة من وظائفه الرئيسة لنشر الدين الإسلامي والدعوة له، وهو ما عبّر عنه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾[1].

وعلى ضوء تعاليم القرآن الكريم كانت «حياة الرسول ﷺ كلها إرشاد وهداية وتعليم، وخاصة ما كان من أقواله عليه الصلاة والسلام التي قصد بها التشريع والهداية. ولذلك كانت خصائصه وصفاته... مدرسة يتعلم فيها أصحابه طرازاً جديداً من الحياة، ومقياساً جديداً من المفاهيم كان له أكبر الأثر في قيام الدولة الإسلامية والمجتمع الإسلامي ونشوء الفرد المسلم»[2].

والحقيقة أنّه «لم يكن للنبي ﷺ مدرسة مشيدة ولا معهد للتعليم يجلس فيه إلى أصحابه يحاضرهم، بل كانت مجالسه العلمية واسعة عامة شاملة كالغيث ينزل في كل مكان وينفع الخاص والعام، فهو في الجيش معلم وواعظ يلهب القلوب بوعظه ويحمس الجنود بقوله. وهو في السفر مرشد وهاد. وهو في البيت يعلم أهله. وهو في المسجد مدرس وخطيب وقاض ومفت ومرب. وهو في الطريق يستوقفه أضعف الناس يسأله عن أمر دينه فيقف. وهو على كل أحواله مرشد وناصح ومعلم»[3].

ولهذا يمكن القول: إن التربية الإسلامية «تربية متكاملة بمعنى أنها لا تقتصر على مكان دون مكان ولا على زمان دون زمان، بل هي تتم في كل زمان ومكان، في الصغر وفي الكبر في المسجد، وفي المدرسة، وفي الشارع، وفي الأسرة، وبين الأصدقاء. وكل إنسان في هذه التربية معلم طالما كان عنده ما يعلمه، فالكبير يعلم الصغير والصغير يعلم الكبير»[4]، لأن «الحكمة ضالة المؤمن، يأخذها حيث وجدها»[5].

---

(1) سورة: البقرة، الآية: 129.
(2) مصطفى السباعي: **عظماؤنا في التاريخ**، ص: 70.
(3) محمد بن علوي: **أصول التربية النبوية**، ص: 9.
(4) عبد الغني عبود: **دراسة مقارنة لتاريخ التربية**، ص: 202.
(5) العجلوني: **كشف الخفاء**، 1/ 435 ـ 436.

ولقد كان لمثل هذه المفاهيم والمبادىء التي أوجدها الإسلام «أثر كبير في خلق نهضة ثقافية لم يشهدها الشرق من قبل، حتى لقد بدا أنّ الناس جميعاً من الخليفة إلى أقل أفراد العامة شأناً غدوا... طلاباً للعلم أو أنصاراً للأدب.

وفي عهد الدولة العباسية كان الناس يجوبون ثلاث قارات سعياً إلى موارد العلم والعرفان ليعودوا إلى بلادهم كالنحل يحملون الشهد إلى جميع التلاميذ المتلهفين، ثم يصنفون بفضل ما بذلوه من جهد هذه المصنفات التي هي أشبه شيء بدوائر المعارف. والتي كان لها أكبر الفضل في إيصال هذه العلوم الحديثة إلينا بصورة لم تكن متوقعة من قبل»[1].

ولا شك أنّ إرساء الإسلام لمبدأ المساوة وتكافؤ الفرص في التعليم فتح أبواب المساجد والمعاهد الدراسية للجميع لمتابعة تحصيلهم العلمي «من غير تفرقة بين الغني والفقير، والرضيع والوضيع من المسلمين، إذ لا فضل في الإسلام لعربي على عجمي إلا بالتقوى والتعليم... بالمجان، والطلاب غير مقيدين بسن محددة، أو أشهر معدودة، أو شهادات خاصة، أو درجات معينة في الامتحانات، أو قواعد مسنونة لاختيارهم فمتى وجدت لدى المتعلم الرغبة في الدراسة ومحبة العلم، والشغف بالبحث والاطلاع، يسرت أمامه وسائل التعلم وشجع على طلب العلم»[2].

وكان لنجاح الرسول ﷺ في إرساء مبدأ «مجانية التعليم» إضافة لمبدأ «التعليم للجميع» بالغ الأثر على نفوس الصغار والكبار في طلب العلم وتحصيله ـ لما له من قدسية وارتباط بالعقيدة ـ ولقد شجع هذا بدوره على تعزيز مبدأ «التعليم المستمر» الذي دعا إليه الإسلام. وبدا ذلك واضحاً من خلال الاهتمام بتعليم الكبار. فالصحابة ﷺ كانوا يتعلمون في كبر سنهم، ولا يجدون حرجاً لأنهم وعوا أهمية العلم في الإسلام إلى جانب أنهم كانوا يجدون أبواب التعليم مفتوحة لهم على مصاريعها في كل وقت وكل مكان.

وهكذا فإنّ التعليم في الإسلام كان مُيسراً لكل راغب في طلب العلم قادر

---

(1) حسن إبراهيم حسن: **تاريخ الإسلام**، 2/ 322.

(2) محمد عطية الإبراشي: **التربية الإسلامية وفلاسفتها**، ص: 26.

على الفهم؛ لأن العملية التعليمية «لم تشترط مؤهلات معينة أو شهادات خاصة، أو نسباً مئوية محددة، ولم تقيد بقيود من الفولاذ وشروط كلها تعقيد وتعجيز، ولم تضع عقبات في سبيل من يرغبون في طلب العلم»[1]. إلّا أنّ إسقاط التربية الإسلامية للبعدين الزماني والمكاني للتعليم ـ انسجاماً مع العقيدة الإسلامية ونظرتها للعلم والإنسان ـ لا يعني أنّ المجتمع الإسلامي لم يعرف المؤسسات التربوية بل على العكس من ذلك، فمنذ اللحظة الأولى لبزوغ فجر الإسلام، كانت دار الأرقم ابن أبي الأرقم بمثابة أول مؤسسة تربوية شهدها الإسلام. ومن ثم بدأت تظهر مؤسسات أخرى كانت نتاج «بيئة معينة نابعة من صميم حاجات المجتمع الإسلامي وتطوراته، مجيبة لهذه الحاجات، ومستجيبة لمتطلباته مصبوغة بالصبغة والروح الإسلامية، حيث اهتدت واستنارت بتعاليم الإسلام وأغراضه، إنّها ليست بالدخيلة المستوردة وإنّما هي نتاج نمو وتطور في الحياة الإسلامية العامة، نشأت في أمكنة معينة وأزمان معينة وظروف معينة، وضمن أغراض، وأهداف معينة أملتها حاجات المجتمع الإسلامي النامية المتطورة»[2].

ومع التقدم الحضاري للمجتمع الإسلامي برزت الحاجة ماسة لتوفير عناصر وكوادر مدربّة قادرة على إدارة شؤون الدولة وتسيير دفة الحكم، فكان الحل عن طريق اعتماد نظام المدرسة الذي أصبح ضرورة لا غنى عنها في مواجهة تحديات التقدم الحضاري والعلمي للمجتمع العربي الإسلامي. ولقد استوجب هذا التطور تدخلاً مباشراً من الدولة للإشراف على العملية التعليمية في بعض نواحيها، وبذلك أصبحت المدرسة مؤسسة رسمية من مؤسسات الدولة تسهم في تأمين القوى العاملة القادرة على تسيير العمل في مختلف إدارات الدولة.

وتجدر الإشارة إلى أنّه «قبل انتشار المدارس كانت حلقات التعليم لا تعقد في أمكنة من طراز واحد، بل تعقد في أمكنة مختلفة المشارب»[3]. ومن أشهر هذه الأمكنة «الكتّاب، والمسجد، والمكتبة، وبيوت الحكمة، ودور العلم، وحوانيت الوراقين، ومجالس العلم، والمناظرة، ومنازل العلماء، ومجالس الفتوى،

(1) محمد عطية الإبراشي: **التربية الإسلامية وفلاسفتها**، ص: 39.
(2) محمد منير سعيد الدين: **المدرسة الإسلامية في العصور الوسطى**، ص: 10.
(3) أحمد شلبي: **تاريخ التربية الإسلامية**، ص: 43.

والبيمارستانات، والمراصد الفلكية ومعاهدها العلمية، والربط والزوايا والخوانق الصوفية، والعتبات الشيعية المقدسة وغيرها»[1].

والحقيقة أنّ هذه المؤسسات التعليمية «شأنها في ذلك شأن غيرها من مظاهر الحياة، لم تنشأ دفعة واحدة وإنّما مرت بأدوار عديدة وتطورات جمة، حتى نمت واكتملت واتخذت تلك الأوضاع التي صارت إليها في القرن الخامس الهجري وما تلاه من قرون»[2]. ولقد كان لهذه المؤسسات دور فاعل في تعزيز التربية المستمرة وتنشيط حركة تعليم الكبار عند المسلمين. وهو ما ستتطرق إليه البحث في محاولة لإلقاء الضوء على عدد من هذه المؤسسات ودورها في مجال التربية المستمرة وتعليم الكبار.

الكُتّاب:

صحيح أنّ الكتّاب هو المَوْقع الذي خُصِّص ليتلقى فيه صبيان المسلمين التعليم الأساسي، ولكن ما هو صحيح أيضاً أنّه لم يكن حكراً على هذه الفئة العمرية من المتعلمين، لأنّ الإسلام أسقط حدود الزمان والمكان في العملية التعليمية. وفي حال كان هناك حدود أو قيود، فقد كان ذلك لدرء خطر أو دفع ضرر كان من المحتمل أن يقع. ففي الوقت الذي لم تكن فيه المدارس الكنسية عامة لجميع أفراد الشعب، بل اقتصرت على طبقة الكهنوت، كان الوضع مختلفاً بالنسبة للكتاتيب الإسلامية التي كانت «عامة لجميع أفراد الشعب، ولم يكن من الضروري وجودها بالمساجد، ولم يكن يعيش الصبيان فيها معيشة داخلية. ولم تكن صلة معلم الكتاب بالصبيان صلة الراهب بتلاميذه يقتحم شخصياتهم ليطبعها بطابع المسيحية. ذلك أن معلم الكتاب ملقن ومرشد، وليس واعظاً يسعى إلى بث آراء معينة. فهو يعلمهم القراءة والكتابة ويحفظهم القرآن الكريم، وهو الجزء الأساسي من تعليمه»[3] الذي يحتاج إليه كل مسلم ومسلمة ـ صغيراً كان أم كبيراً ذكراً كان أم أنثى ـ ليؤدي العبادة على الوجه الصحيح، ويتمكن من ترجمتها إلى

(1) محمد منير سعدالدين: **المدرسة الإسلامية في العصور الوسطى**، ص: 10.
(2) محمد عبدالرحيم غنيمة: **تاريخ الجامعات الإسلامية الكبرى**، ص: 23.
(3) أحمد فؤاد الأهواني: **التربية في الإسلام**، ص: 86.

سلوك عملي يشمل علاقته بربه، ونفسه، والناس والبيئة التي يعيش فيها والعالم الذي ينتمي إليه.

فليس غريباً إذن أن يكون «منهج التعليم في المدرسة المحمدية منهجاً عملياً ولم يكن مجرد كلام نظري... أو أفكاراً خالية... غير قابلة للتطبيق العملي»[1].

والرسول ﷺ عندما كان يتلو آيات القرآن الكريم على الناس، ويُعلِّمهم الحِكْمة لم يكن في تلك الفترة مكان محدد للكُتّاب. فأينما سنحت الفرصة كانت تتم عملية التعليم، وحيثما وجد الرسول كان يقرىء أصحابه القرآن ويفقههم في الدين، كما وأنّه أوكل مهمة الإقراء والتعليم أيضاً إلى عدد من أصحابه وفي ذلك يقول: «**خذوا القرآن من أربعة: من عبد الله بن مسعود فبدأ به، وسالم مولى أبو حذيفة** (12 هـ/ 633م)، **ومعاذ ابن جبل** (18 هـ/ 639م)، **وأبيّ بن كعب** (21 هـ/ 642م)»[2].

ولم يقتصر الأمر على هؤلاء بل كان هناك آخرون مثل أبي بكر الصديق وغيره من الصحابة ﷺ. فلقد كان عثمان بن أبي العاص (51 هـ/ 671م) يأتي رسول الله ﷺ ويسأله «عن الدين ويستقرئه القرآن، فقرأ سوراً من فيّ رسول الله ﷺ. وكان إذا وجد رسول الله ﷺ نائماً عمد إلى أبي بكر فسأله واستقرأه، وإلى أبيّ بن كعب فسأله واستقرأه»[3].

وإذا اعتبرنا أنّ الكُتّاب يرمز إلى المكان الذي كان يتم فيه التعليم الجماعي الأولي لأبناء المسلمين دون النظر لأعمارهم، فإنّه يمكن الوقوف على كثير من الأمثلة التي تُعَبِّر عن مثل هذا النسق التعليمي الذي شهدته الساحة الإسلامية. ويروى عن أبي سعيد الخدري (74 هـ/ 693م) أنّه قال في أصحاب الصفّة: وجلست في عصابة من ضعفاء المهاجرين، وإنّ بعضهم ليستتر ببعض من العرب. وقارىء يقرأ علينا، إذ جاء رسول الله ﷺ فقام علينا، فلما قام رسول الله ﷺ سكت القارىء، فسلم ثم قال: «**ما كنتم تصنعون؟**» قلنا: يا رسول الله إنّه قارىء

(1) عبد الغني عبود: **دراسة مقارنة لتاريخ التربية**، ص: 201.
(2) البخاري: **صحيح البخاري**، 5/ 118.
(3) ابن سعد: **الطبقات الكبرى**، 5/ 508.

يقرأ علينا، فكنا نستمع إلى كتاب الله»[1]. ويقول الصحابي عبادة بن الصامت: «علّمت ناساً من أهل الصفّة الكتابة والقرآن»[2].

وتعبّر المعلومات التي وردت في حديث الواقدي (207 هـ/ 823م) عن غزوة بئر معونة تعبيراً حياً عن طبيعة هذا النوع من التعليم الذي لم يتقيد بقيود الزمان والمكان حيث يقول: «... وكان من الأنصار سبعون رجلاً شببة يسمون: القراء، كانوا إذا أمسوا أتوا ناحية من المدينة فتدارسوا وصلوا، حتى إذا كان وجاءه الصبح استعذبوا من الماء وحطبوا من الحطب فجاؤوا به إلى حُجَر الرسول ﷺ وكان أهلوهم يظنون أنّهم في المسجد، وكان أهل المسجد يظنون أنّهم في أهليهم. فبعثهم رسول الله ﷺ فخرجوا فأصيبوا في بئر معونة...»[3].

ومن أمكنة هذا النوع من التعليم أيضاً دار القراء التي نزل فيها عبد الله ابن أم مكتوم(*). يقول ابن شبة (262 هـ/ 876م): «أسلم ابن أم مكتوم بمكة قديماً، وكان ضرير البصر وقدم المدينة مهاجراً بعد بدر بيسير فنزل دار القراء»[4].

ولقد أوكل الرسول ﷺ للحكم بن سعيد بن العاص بن أمية (**) ـ الذي قتل يوم بدر في المدينة ـ الكتابة[5]. وبعد أن قويت دعائم الإسلام في المدينة توجه الرسول لقبائل العرب خارج المدينة ليعلمهم وينشر الإسلام بين صفوفهم. وأوفد من أجل هذا الهدف ما ينيف على الأربعين من الصحابة القراء إلى قبيلة بني عامر بنجد[6]. وأرسل كذلك قرابة العشرة لقبيلة لحيان بن هذيل[7]. غير أنّ كلا البعثتين لم توفقا لأنّه كيد لهما وانتهتا بكارثة مفجعة.

وبعد انتشار الإسلام في عهد عمر بن الخطاب كان من الضروري تعليم

---

(1) أبو داود: **سنن أبي داود**، 4/ 72.

(2) محمد عبد الحي الكتاني: **نظام الحكومة النبوية المسمى التراتيب الإدارية**، 1/ 48.

(3) الواقدي: **كتاب المغازي**، 1/ 346 ـ 347.

(*) عبدالله بن أم مكتوم الأعمى القرشي العامري اختلف في اسم أبيه، وكان قديم الإسلام وقتل شهيداً بالقادسية.

(4) ابن سعد: **الطبقات الكبرى**، 4/ 205.

(**) الحكم بن سعيد بن العاص بن أمية الأموي، أبو خالد، سماه النبي ﷺ عبدالله.

(5) ابن حجر: **الإصابة**، 1/ 343.

(6) ابن هشام: **السيرة**، 2/ 183 ـ 186.

(7) المسعودي: **التنبية والإشراف**، 212.

النّاس القراءة، والكتابة ليتمكنوا من دراسة كتاب الله تعالى وسنة رسوله الكريم. فنشطت الحركة التعليمية بتشجيع من أمير المؤمنين. ويُروى أنّ ثلاثة معلمين «كانوا بالمدينة أيام عمر يعلمون الصبيان، وكان عمر يرزق كل واحد منهم خمسة عشر درهماً كل شهر»[1].

وسيراً على خطى النبي الكريم الذي بعث برسله إلى القبائل ليعلموها القرآن، أرسل عمر ﷺ رسله فيما بعد إلى بلاد الفتح ليعلموا أهلها القرآن وأمور دينهم ودنياهم[2].

ومن الروايات التي تروى عن عمر وتشجيعه لتعليم القرآن أنّه كتب إلى أحَد عماله: «أن اعط النّاس على تعلم القرآن»[3]. ولفظة الناس هنا لا تستثني أحداً من التعليم صغيراً كان أم كبيراً، ذكراً كان أم أنثى. وكان ﷺ عنه شديد الحرص على تعليم الناس القرآن في الأمصار لأنهم كانوا حديثي العهد بالإسلام. وبحاجة إلى العلم الذي يمكنهم من معرفته ومعرفة أحكامه، حتى يؤدوا فرائضهم على الوجه الصحيح، وبالتالي حتى يقوموا بنشر الإسلام وتعليمه لغيرهم. فبعث عبد الله بن مسعود إلى حمص ومن ثم إلى الكوفة التي كتب إلى أهلها قائلاً: «... وجعلت عبد الله بن مسعود معلماً ووزيراً وإني والله آثرتكم به على نفسي فخذوا منه»[4].

وولّى أيضاً أبو موسى الأشعري (44 هـ/ 665م) على البصرة الذي ما أن وصلها حتى خاطب النّاس قائلاً: «بعثني إليكم عمر بن الخطاب أعلمكم كتاب ربكم وسنتكم»[5]. وكان يطوف على الناس في المسجد يقرئهم القرآن[6]. ولقد أرسل عمر ﷺ عشرة آخرين ليعاونوه في ذلك منهم عبد الله بن معقل المزني (57 هـ/ 677م)[7] وعمران بن حصين (52 هـ/ 172م)[8].

---

(1) عبد القادر بدران: **تهذيب تاريخ ابن عساكر**، 6/ 412.
(2) ابن حجر: م. س، 2/ 260.
(3) أبو عبيد: **الأموال**، ص: 327.
(4) ابن الأثير الجزري: **أسد الغابة**، 3/ 284.
(5) الدارمي: **سنن الدارمي**، 1/ 135.
(6) البلاذري: **أنساب الأشراف**، 1/ 110.
(7) ابن سعد: **الطبقات الكبرى**، 7/ 13 ـ 14.
(8) ابن سعد: م. ن، 4/ 287.

ولم يغفل عمر عن تعليم المجاهدين. فلقد أوفد أبا الدرداء ومعاذ بن جبل وعبادة بن الصامت ليعلموهم القرآن، ويفقهوهم في الدين، وأمرهم بأن يبدأوا بحمص وأوصاهم في حال كتب لهم النجاح في مهمتهم أن يتوجه واحد منهم إلى دمشق وآخر إلى فلسطين[1].

وعمد أبو الدرداء إلى تنظم المتعلمين في مجموعات حسب مستوياتهم التعليمية. وكان «إذا صلى الغداة في جامع دمشق اجتمع الناس للقراءة عليه، فكان يجعلهم عشرة عشرة وعلى كل عشرة عريفاً، ويقف هو في المحراب يرمقهم ببصره، فإذا غلط أحدهم رجع إلى عريفهم، فإذا غلط عريفهم رجع إلى أبي الدرداء. فسأله عن ذلك... وعن مسلم بن مشكم (*)، وقال لي أبو الدرداء ﷺ: اعدد من يقرأ عندي القرآن فعددتهم ألفاً وستمائة ونيفاً. وكان لكل عشرة منهم مقرىء، أبو الدرداء يكون عليهم قائماً وإذا أحكم الرجل منهم تحول إلى أبي الدرداء ﷺ»[2].

وهكذا فإن عمر لم يكتف بإيفاد المعلمين لإقراء الناس بالأمصار بل عين قراء لإقراء الجند في الكتاب. فكان هؤلاء القراء يطوفون على الجند ويقرئونهم القرآن خاصة قبل اللقاء مع العدو. وكانت سورة الأنفال تقرأ عادة في مثل هذه المناسبات تماماً مثلما حصل في معركة القادسية[3].

وعلى ضوء هذه الوقائع يمكن النظر إلى الكتاب على اعتبار أنّه مكان للتعليم الجماعي الأولي دون تقييد ذلك بلفظة: «الصغار». وإذا كان لا بد من التمييز، فإنّه من الممكن القول: إنّ هناك نوعين من الكتاب، **الأول**: خاص بالكبار، **والثاني**: خاص بالصغار. ورغم هذا فقد كان الصغار في بعض الأحيان يلتحقون بكتاتيب تعليم الكبار، تماماً مثلما كان الكبار يلتحقون بكتاتيب تعليم الصغار عندما كانت تدعو الحاجة لذلك.

---

(1) الذهبي: **سير أعلام النبلاء**، 2/ 244؛ ابن سعد: م. س، 2/ 357.

(*) كان كاتب أبي الدرداء وروى عنه وعن معاوية.

(2) ابن الجزري: **غاية النهاية في طبقات القراء**، 1/ 606 ـ 607.

(3) ابن خلدون: **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر**، 2/ 928 ـ 929.

والحقيقة أنّ التعليم الجماعي الأولي ـ كما يبدو من سياق البحث ـ كان منتشراً خلال القرنن الأول الهجري، وقد كانت الكتاتيب موجودة على شكل زوايا بالمساجد أو غرف ملتصقة بها. ومع مرور الوقت ظهرت كتاتيب مستقلة عن المساجد ومنها الكتّاب الذي تحدث عنه الإمام الشافعي قائلاً! كنت في الكتاب... فلما ختمت القرآن دخلت المسجد[1].

ومن الكتاتيب المشهورة المستقلة التي وردت في كتب التراجم والتاريخ كتّاب أبي القاسم البلخي الذي كان يتعلم به قرابة ثلاثة آلاف تلميذ، وكان يطوف عليهم على حمار[2]. ويبدو أنّ الكتاتيب خلال القرن الثاني الهجري وما تلاه قد انتشرت انتشاراً واسعاً، حتى أنّ ابن حوقل يذكر بأنّه عدّ في مدينة واحدة ما يقارب ثلاثماية من معلميها[3].

ومع أنّ هذه الكتاتيب كانت مخصصة لتعليم الصبيان، إلا أنّها فتحت أبوابها لاستقبال جميع الفئات العمرية من أبناء المسلمين. ومن أمثلة ذلك ما يذكر أنّ عمر ابن الخطاب ﷺ لقي إعرابياً فقال له: هل تُحسن أن تقرأ القرآن؟ قال: نعم. قال: فاقرأ أم القرآن، قال: والله ما أحسن البنات فكيف الأم؟ فقال: فضربه ثم أسلمه إلى الكتاب فمكث فيه ثم هرب وأنشأ يقول[4]:

أتيت مهاجرين فعلموني ... ثلاثة أسطر متتابعات
كتاب الله في رق صحيح ... وآيات القرآن مفصلات
فخطوا لي أبا جاد وقالوا ... تَعَلَّم سعفصاً وقريشات
وما أنا والكتابة والتهجي ... وما حظ البنين من البنات

ويمكن أن يستدل من استياء علماء المسلمين من اختلاط الجواري والغلمان في الكتاب أنّ تعليم الكبار كان من الممارسات التي شهدتها الكتاتيب. فحنون

(1) ابن عبد البر: **جامع بيان العلم وفضله**، 1/ 98.
(2) ياقوت: **معجم الأدباء**، 4/ 272.
(3) ابن حوقل: **كتاب صورة الأرض**، 1/ 126.
(4) الزبيدي: **تاج العروس**، 2/ 294.

(240 هـ/ 854م) عندما يقول: «أكره للمعلم أن يعلم الجواري ويخلطهن مع الغلمان لأنّ ذلك فساد لهن»[1]، إنّما يدل على وجود مثل هذا النوع من التعليم، الذي يعاود القابسي الإشارة إليه من خلال تذكير المعلم بما يجب عليه القيام به، في حال وجود متعلمين من الفئة العمرية التي تجاوزت الحلم فيقول: «وإنّه ليبغي للمعلم أن يحترس الصبيان بعضهم من بعض إذا كان فيهم من يخشى فساده يناهز الاحتلام، أو يكون له جرأة»[2].

ويفهم من كلام سحنون أيضاً: أن تعليم الكبار في الكتاب لم يكن مقتصراً على الذكور فقط، بل إن هناك ما يدل على وجود إناث تخطين سن الحلم كنّ يتلقين التعليم في الكتاب. ومن أمثلة ذلك ما روي عن الوليد بن عبد الملك (96 هـ/ 715م) عندما مرّ على معلم كتّاب فوجد عنده صبية، فقال له: ما تصنع هذه عندك؟ فقال: أعلمها الكتابة والقرآن فأشار عليه الخليفة بأن يجعل من يعلمها أصغر منها سناً»[3].

يستخلص مما سبق: أن الكتاب كان يستقبل جميع طالبي العلم من مختلف الفئات العمرية انسجاماً مع دعوة الإسلام لمحو الأمية بمستوياتها المختلفة وفي جميع مراحل العمر دون استثناء. فالإنسان في نظر الإسلام يبقى عالماً ما طلب العلم، ولذلك لم يكن عند المسلمين حرج في أن يتعلم أحدهم أنّى سنحت له الفرصة بذلك.

البيوت الخاصة:

كان للبيوت عند المسلمين نصيب كبير في دفع حركة التعليم بشكل عام وتعليم الكبار بشكل خاص إلى الأمام. ويُظهِر الدور التربوي لهذه البيوت بوضوح كيف أنها أسهمت في محو الأمية بمستوياتها المختلفة منذ اللحظة الأولى لظهور الإسلام، وحتى بعد انتشار المؤسسات المتخصصة للتعليم في منتصف القرن الخامس الهجري على يد الوزير نظام الملك.

---

(1) القابسي: **الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين**، ص: 315.
(2) القابسي: م. ن، ص: 366.
(3) ابن عبد ربه: **العقد الفريد**، 5/ 161.

وكادت البيوت خلال الفترة المكية أن تكون بمثابة المكان الوحيد لتلقي العلم، وذلك بسبب تعذر الجهر بالدعوة، وعدم ملاءمة الظروف لنشرها في الأماكن العامة... ويأتي في طليعة تلك البيوت دار الأرقم بن أبي الأرقم التي تعتبر «أول «مؤسسة» تربوية شهدها الإسلام في مكة... قبل أن يجهر الرسول ﷺ بدعوته بعد نزول الوحي على قلبه وتكليفه بأعباء الرسالة ومسؤولياتها، وكان المعلم الأول فيها... هو الرسول الكريم نفسه»[1].

وإلى جانب دار الأرقم كان يتم التعليم في بيوت عدد آخر من المؤمنين الأوائل وفي مقدمهم بيت أبي بكر الصديق الذي كان الرسول ﷺ يتردد إليه يومياً. فعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ لم يمر يوم إلا ويأتي منزل أبي بكر طرفي النهار بكرة وعشية، ثم بدا لأبي بكر فابتنى مسجداً بفناء داره بمكة فكان يصلي فيه ويقرأ القرآن[2].

ومن يرجع إلى إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه يجد كيف أن إسلامه كان في بيت أخته على يد صحابي ـ كان له شرف السبق إلى الإسلام ـ تطوع ليعلم شقيقة عمر وزوجها أمور الدين[3].

ولا يخفى أن الرسول ﷺ «قبل إنشاء المساجد... كان يجلس بمنزله بمكة والمدينة ويلتف حوله المسلمون ليعلمهم ويزكيهم»[4]. ولقد بقي الوضع على هذا الحال إلى أن نزل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعٗا فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٖۚ ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّۚ وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾[5]. ولقد كان نزول هذه الآية بعد إنشاء المساجد وجاءت لتضع حداً لإيذاء الرسول والإثقال عليه ومنعه من قضاء كثير من مصالحه وأموره[6].

وأسوة بالرسول ﷺ لم يجد صحابته ومن جاء بعدهم من العلماء حرجاً في

(1) عبد الغني عبود: دراسة مقارنة لتاريخ التربية، ص: 205.
(2) البخاري: صحيح البخاري، 1/ 205؛ انظر: البلاذري، **أنساب الإشراف**، 1/ 20.
(3) ابن الأثير الجزري: **أسد الغابة في معرفة الصحابة**، 4/ 54.
(4) أحمد شلبي: **تاريخ التربية الإسلامية**، ص: 68.
(5) سورة: الأحزاب، الآية: 53.
(6) محمد علي الصابوني: **صفوة التفاسير**، 2/ 534، 535.

أن يستقبلوا الطلبة في منازلهم. فلقد فتحت أم الدرداء (81 هـ/ 700م) أبواب بيتها للطلبة والعلماء. ويروي أبو زرعة أنّ طالبي العلم «كانوا يجتمعون في بيت أم الدرداء يقرأ عليهم خليد بن سعد وكان رجلاً قارئاً»[1]. كما وأن النسوة كن يجالسنها ويتعبدن عندها. وذات يوم قال لها أحد جلسائها لقد «أمللناك فقالت أمللتموني: لقد طلبت العبادة في كل شيء فما أصبت شيئاً أشفى من مجالسة العلماء ومذاكرتهم، ثم احتبت، وأمرت رجلاً أن يقرأ فقرأ[2]: ﴿۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾﴾[3].

ومن أشهر علماء المسلمين الذين جعلوا من بيوتهم أمكنة لتعليم الكبار الإمام مالك بن أنس الذي «ترك الجلوس في المسجد فكان يصلي وينصرف إلى مجلسه»[4]. وفي حال أراد أن يحدّث توضأ وجلس على صدر فراشه وسرّح لحيته وتمكن في جلوسه بوقار وهيبة ثم حدّث»[5].

وقد كان منزل أبي محمد الأعمش (148 هـ/ 765م) مركزاً من مراكز التعليم في الكوفة[6]. وكذلك فإنّ محمد بن الحسن الشيباني (189 هـ/ 804م) كان «إذا حدّث عن مالك امتلأ منزله وكثر الناس عليه حتى يضيق عليهم الموضع»[7].

ومن أشهر مجالس العلم في بغداد «مجلس المحاملي» الذي أسس عام (270 هـ/ 883م) في منزل أبي عبد الله الحسين بن اسماعيل الضبي المحاملي. وقد خصص هذا المجلس الذي استمر حتى وفاة المحاملي سنة 330 هـ/ 942م للمناقشات الشرعية والدينية[8].

وقد كان الفراء النحوي (207 هـ/ 822 ـ 823م) يعلم في بيته[9]. ومثل ذلك

(1) أبو زرعة: **تاريخ أبي زرعة الدمشقي**، ص: 141.
(2) ابن منظور: **مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر**، 27/ 176 ـ 177.
(3) سورة: القصص، الآية: 51.
(4) ابن خلكان: **وفيات الأعيان**، 4/ 136.
(5) ابن خلكان: م. ن، 4/ 135.
(6) الخطيب البغدادي: **تاريخ بغداد**، 9/ 3 ـ 13.
(7) الخطيب البغدادي: م. ن، 2/ 173.
(8) الخطيب البغدادي: م. ن، 8/ 19 ـ 23.
(9) الخطيب البغدادي: م. ن، 14/ 153.

قيل عن أبي بكر السراج النحوي (316 هـ/ 929م) الذي جعل من بيته مركزاً من مراكز التعليم[1]، وكذلك الحال بالنسبة لمعظم علماء المسلمين الذين فتحوا أبوابهم لطالبي العلم من دونما نظر لأي اعتبار سوى الالتزام برسالة العلم والتعليم التي دعا إليها الإسلام.

وكان بيت الشيخ الرئيس ابن سينا من البيوت التي اكتسبت شهرة واسعة في مجال العلم وكان لها فضل كبير في دفع الحركة الفكرية والتعليمية إلى الأمام. وكان يتم التدريس في بيته بالليل لعدم الفراغ بالنّهار بسبب الانشغال بخدمة الأمير[2].

وكذلك فإنّ بيت السجستاني (380 هـ/ 990م) اكتسب شهرة واسعة على الصعيدين العلمي والفكري، فقد كان يحضر مجلسه علماء كثر كل واحد منهم «إمام في شأنه وفرد في صناعته»[3].

ومن مجالس النظر التي كان لها أهمية في القرن الخامس الهجري في بغداد مجلس القاضي السماني (444 هـ/ 1052م) الذي كان يدعو إليه في منزله الخاص[4].

وتجدر الإشارة إلى أنّ التعليم في المنازل ـ حتى بعد ظهور المؤسسات التربوية ـ كان ذا جدوى علمية لا يستهان بها ذلك لأنّه «أتاح الفرصة أمام الطلبة لدراسة علوم قد لا تدرس في المدارس كالرياضيات والفلسفة والمنطق وغيرها»[5]. غير أنّ التعليم في المساجد كان أيسر من التعليم في البيوت؛ لأنّ المساجد بيوت الله التي لا يجد المسلمون حرجاً في أن يقصدوها دون استئذان ليستفيدوا مما يعلم فيها.

المساجد:

في الحقيقة إنّ المسلمين لم يكونوا «يعتبرون المنازل مكاناً صالحاً للتعليم

(1) الخطيب البغدادي: **تاريخ بغداد**، 5/ 319 ـ 320.
(2) ابن أبي أصيبعة: **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، 3/ 8.
(3) أبو حيان التوحيدي: **المقابسات**، ص: 12.
(4) الخطيب البغدادي: م. س، 1/ 355.
(5) محمد منير سعد الدين: **دراسات في تاريخ التربية عند المسلمين**، ص: 70.

لما قد يحسه الأهل من انزعاج، ولما يمكن أن يحسه الطلبة من حرج مما يعوق العملية التعليمية... لكن للضرورة أحكام»[1] لذا فالرسول ﷺ كان يحث دائماً على التعلم والتعليم في المساجد. فعن أبي هريرة ﷺ أنّه قال: «**من جاء مسجدنا هذا ليتعلم خيراً أو يعلمه فهو كالمجاهد في سبيل الله. ومن جاء لغير ذلك فهو بمنزلة الرجل ينظر إلى متاع غيره**»[2]. لذا فليس غريباً أن يرى المسلمون أنّ «أفضل مواضع التدريس هو المسجد، لأن الجلوس للتدريس إنّما فائدته أن تظهر به سنّة أو تخمد به بدعة أو يتعلم به حكم من أحكام الله تعالى. والمسجد يحصل فيه هذا الغرض متوافراً لأنّه موضع لاجتماع الناس رفيعهم ووضيعهم وعالمهم وجاهلهم»[3]. والمقصود بذلك هو «تعليم الكبار من الطلاب تفسير القرآن ودراسة الحديث والفقه والشريعة الإسلامية مع مراعاة مبادىء التربية في الإسلام، وهو المساواة، وتكافؤ الفرص والحرية في تلقي العلوم واختيار مواد الدراسة، والأساتذة والتحرر من المؤثرات المالية»[4].

وعلى هذه القاعدة قامت المساجد والجوامع بوظيفتها كمؤسسات تعليمية منذ نشوئها إلى جانب وظيفتها الأساسية كأماكن للعبادة. فكان الرسول ﷺ وخلفاؤه يعلمون الناس في جامع المدينة أمور دينهم ودنياهم. وكان تميم الداري (40 هـ/ 660م) يقص في هذا المسجد في عهد عمر بن الخطاب ﷺ ويعظ الناس كل يوم جمعة، فلما استخلف عثمان استأذنه أن يقوم في النّاس مرتين فأذن له[5].

ولا شك في أنّ استخدام المسجد كمعهد للعلم أدى إلى «تلك الخاصية الهامة التي امتازت بها الحضارة الإسلامية وهي الحرية الفكرية، فقد ارتاد المساجد والمجالس العلمية الراغبون في العلم والعلماء المسلمون من جميع أنحاء الدول الإسلامية، وكان مُتاحاً في مجالسها لأي شخص من المستمعين أن يسأل العالم.

(1) المكي إقلانية: **النظم التعليمية عند المحدثين**، ص: 40.
(2) ابن ماجه: **سنن ابن ماجه**، 1/ 82 ـ 83.
(3) ابن الحاج العبدري: **المدخل**، 1/ 85.
(4) محمد عطية الإبراشي: **التربية الإسلامية وفلاسفتها**، ص: 79.
(5) الذهبي: **سير أعلام النبلاء**، 2/ 447 ـ 448.

وفي حال عجزه عن الرد وإقناع السائل يفقد الثقة ويضطر إلى ترك حلقته إمّا لينتقل إلى مسجد آخر، أو ليعد نفسه عملياً من جديد»[1].

وكما يبدو فإنّ التعليم في المساجد كان حراً «حرية مطلقة ليس هناك قواعد لحضور الطلاب أو لانصرافهم. وليس الطالب مقيداً بالاستماع إلى أستاذ معين أو دراسة علم معين وليس الشيخ مقيداً بمنهج ثابت. فكان الطلاب يحضرون على الشيخ الذي يروقهم في حلقته، فإذا أحب طالب دروس شيخ لزمه وأخذ عنه حتى يتخرج على يديه ويجيزه للتدريس فيما بعد»[2].

وكان الرسول ﷺ يعلم أصحابه أصول الدين وقواعد الإسلام في المسجد كما في رواية أبي واقد الحارث بن عوف (85 هـ/ 704م) ﷺ قال: «بينما هو جالس في المسجد والنّاس معه إذ أقبل ثلاثة نفر، فأقبل اثنان إلى رسول الله ﷺ. فأما أحدهما: فرأى فرجة في الحلقة فجلس فيها، وأما الآخر: فجلس خلفهم، وأما الثالث: فأدبر ذاهباً. فلما فرغ رسول الله ﷺ قال: **«ألا أخبركم عن النفر الثلاثة؟ أما أحدهم: فأوى فأواه الله، وأما الآخر: فاستحيا فاستحيا الله منه، وأما الآخر: فأعرض فأعرض الله عنه»**[3].

وفي الصدر الأول للإسلام «كان الصغار يجلسون مع الكبار في حلقات المساجد للتعلم. وممن تعلموا في المسجد علي بن أبي طالب، وعبد الله بن عباس... ولما كان الأطفال لا يتحفظون من النجاسة قد أوصى كثيرون ألّا يكون التعليم في المسجد. وقيل: إنّه لا يجوز تعليم الأطفال في المسجد لأنّ النبي ﷺ أمر بتنزيه المساجد من الصبيان والمجانين؛ لأنّهم يسودون حيطانها ولا يحرزون من النجاسات... وللمحافظة على المساجد والجوامع جعلت لتعليم الكبار من الطلبة»[4].

يفهم من هذا: أنّ المساجد والجوامع كانت تشكل الأماكن الرئيسة لتعليم

(1) محمد منير سعد الدين: **دراسات في التربية الإسلامية**، ص: 39.
(2) أحمد فؤاد الأهواني: **التربية في الإسلام**، ص: 15.
(3) الترمذي: **سنن الترمذي**، 5/ 73.
(4) محمد عطية الإبراشي: **التربية الإسلامية وفلاسفتها**، ص: 78.

الكبار. ويمكن القول: إنّ النشاط التعليمي التربوي الذي كان يسود المسجد النبوي والمسجد الحرام كان القدوة، والحافز لباقي المساجد داخل الجزيرة العربية وخارجها.

وليس غريباً أن تكتسب المساجد أهمية كبيرة في تاريخ الإسلام مما جعل منها مراكز للدعوة الإسلامية. ولمّا كان المسلم يحتاج إلى العلم والمعرفة حتى يقوم بما فرضه الله عليه، ولمّا كانت الدعوة إلى الإسلام بدورها تحتاج إلى العلم، كان من الطبيعي أن تكون المساجد أمكنة للتعلم والتعليم اقتداء بالرسول ﷺ الذي أورث علماً ولم يورث مالاً. وبذلك كانت للمساجد أدوار بارزة وجهود مميزة في مجال تعليم الكبار في الإسلام.

القصور:

إنّ الثقافة العربية الإسلامية التي وضع قواعدها الأولى الرسول الكريم ﷺ ستمرت في ترسيخ مكوناتها الرئيسة ـ عبر العصور ـ على أيدي القوى الفاعلة في المجتمع العربي الإسلامي على الرغم من أنّ نتائجها لم تكن دائماً بمستوى الأهداف التي سعى لتحقيقها الرسول ﷺ والخلفاء الراشدون من بعده.

وقد كانت التربية بطبيعة الحال مظهراً من مظاهر التعبير عن التحولات الثقافية في هذا المجتمع، الذي بات يؤمن بأهمية التعلم والتعليم على كافة المستويات وفي مختلف مراحل العمر. ومن هنا كان حرص ولاة أمر المسلمين على إحاطة أنفسهم وأبنائهم في مجالات العلوم الدينية والدنيوية على اختلاف أنواعها.

وتجلت هذه الأنشطة في العصر العباسي عندما تطورت الثقافة العربية الإسلامية تطوراً بات خطراً على الدين في بعض الأحيان. وأصبحت قصور الخلفاء تعج برجال الفكر والفن والعلم على اختلاف مشاربهم واتجاهاتهم. يقول الخطيب البغدادي: «لم يجتمع على باب خليفة من العلماء والشعراء والفقهاء والقراء والقضاة والكتاب والندماء والمغنين ما اجتمع على باب الرشيد. وكان يصل كل واحد منهم أجزل صلة ويرفعه إلى أعلى درجة. وكان فاضلاً شاعراً راوية للأخبار والآثار

والأشعار صحيح الذوق والتمييز مهيباً عند الخاصة والعامة»[1].

وكانت هذه الصالونات إحدى ثمرات التطور، الذي واكبه الخلفاء والأمراء الذين بدأوا يتدرجون في مظاهر الأبهة واتخاذ الحجاب، ولقد «بدأ بذلك معاوية بن أبي سفيان، وأعانه عليه أمراؤه في العراق ومصر، وعملوا مثل عمله وأشاروا عليه بضروب من الفخامة كان عليها ملوك تلك البلاد قبلهم. واقتدى بهم سائر خلفاء بني أمية. وزاد العباسيون الأبهة بمن قربوهم من الفرس. فأدخلوا في الدولة كثيراً مما كان عليه الأكاسرة في مجالسهم وسائر أحوالهم. فتعددت تلك المجالس وأصبحوا يجلسون مجلساً «للحكم وآخر للمنادمة، أو للمناظرة، أو للمذاكرة، أو غيرها ويختلف المجلس باختلاف ذلك فخامة وترتيباً»[2].

وإذا كانت مجالس الخلفاء الراشدين التي كانت تعقد للتوجيه والإرشاد والإفتاء تتسم بالحرية والبساطة، واعتماد الشورى، والمساواة بين الناس على اختلاف المشارب، والمستويات والألوان، فإن ذلك لم يمنعها من أن تلتقي مع «الصالونات الأدبية» في رفع المستوى الثقافي عند رواد تلك المجالس وهذه الصالونات التي «وضحت فيها التقاليد والحضارات الأجنبية التي اقتبسها الخلفاء العرب من الممالك العظيمة التي خضعت لسلطانهم فأصبح الصالون يؤثث أثاثاً رائعاً... ولم يكن الحاضرون أحراراً في اختيار الموعد الذي يحضرون فيه أو ينصرفون عنده وإنما كانوا يحضرون في موعد محدد، وينصرفون عند إشارة خاصة يشير بها الخليفة»[3]. مما يدل على أنّه كان لهذه «الصالونات» آدابها وتقاليدها التي كانت موضع احترام الجميع.

ولم تكن مجالس القصور هذه تقوم بالتعليم بالمعنى الضيق للكلمة، وإنّما كانت تعمل على «توسيع» أفق الحاضرين عن طريق الحوار والنقاش وتداول الأمور الثقافية بصورة عامة. ولما كان معظمها يعقد ليلاً بعد صلاة العشاء فقد سميت مجالس السمر. ومن الطبيعي أن يغلب على مجلس كل خليفة أو أمير الموضوع

(1) الخطيب البغدادي: **تاريخ بغداد**، 14/ 5.
(2) جرجي زيدان: **تاريخ التمدن الإسلامي**، 5/ 150.
(3) أحمد شلبي: **تاريخ التربية الإسلامية**، ص: 72.

الذي يهتم به. فكان الغالب على مجلس معاوية الأخبار والتاريخ والسياسية. وعلى مجلس عبد الملك بن مروان وهارون الرشيد... العربية والشعر والأدب. وعلى مجلس عمر بن عبد العزيز الحديث. وعلى مجلس المأمون... الكلام والفلك والهندسة. إلّا أنّ المادة العامة لهذه المجالس كانت الثقافة العربية الإسلامية بمجموعها بما تضم من موضوعات دينية ولغوية وأدبية وتاريخية وعلمية ورياضية كما دخلت الموسيقا والغناء هذه المجالس في القرن الثاني الهجري»[1].

والملاحظ أنّ المجالس في العصر الأموي كانت موضوعاتها تتجه إلى النواحي الأدبية. ويندر أن تحدث فيها مناقشات في موضوعات علمية أو فلسفية ذلك لأنّ «الأمويين لم يشجعوا... إلّا الحركة الأدبية والقصص الرسمي. ففتحوا أبوابهم للشعراء والخطباء وبذلوا لهم الأموال»[2].

ويروى: أنّ أعرابياً حضر قصر عبد الملك بن مروان، وتمكن من الإجابة عن أسئلة الخليفة، التي أراد من خلالها معرفة أفضل بيت قالته العرب في المدح والفخر والهجاء والغزل والتشبيه. وكان من نتيجة ذلك أن حصل الأعرابي على جائزتين، جائزته والجائزة التي منحها الخليفة لجرير، الذي منحها بدوره للأعرابي[3].

وفي العصر العباسي أخذت هذه المجالس مَنْحى علمياً ومن أشهر المناظرات التي شهدها قصر الرشيد تلك المناظرة اللغوية التي جرت بين سيبويه (180 هـ/ 796م) والكسائي (189 هـ/ 805م). والتي تعصب فيها الأمين للكسائي وكانت سبباً في خروج سيبويه من بغداد[4].

وفي عهد المأمون كثيراً ما شارك هو في الحوارات والمناظرات التي كانت

---

(1) ملكة أبيض: **«مؤسسات التربية العربية في الشام حتى أواسط القرن الرابع الهجري»، في التربية العربية الإسلامية، المؤسسات والممارسات، 1/ 159.**

(2) أحمد أمين: **فجر الإسلام**، ص: 164.

(3) الأصبهاني: **الأغاني**، 7/ 51 ـ 52.

(4) ابن خلكان: **وفيات الأعيان**، 1/ 545.

تجري في قصره، ومنها تلك التي دارت بينه وبين علي بن موسى الرضى (203 هـ/ 818م) حول حقهم في موضوع الإمامة[1].

وشهد عهد المأمون كثيراً من المناظرات والحوارات التي عقدها المعتزلة ـ الذين انضم إليهم ـ مع خصومهم من الشيعة والملحدين من الدهرية والثانوية وغيرهم. ومن يرجع لكتاب «الانتصار والرد على ابن الراوندي» يجده زاخراً بأخبار المجالس والمناظرات التي كان النصر دائماً فيها حليف المعتزلة[2].

ومن أشهر مجالس القرن السابع الهجري مجلس الوزير بن العارض أبي عبد الله الحسن بن سعدان (375 هـ/ 985م) الذي كان مجلسه «بمثابة حلقة علمية ممتازة يتردد عليها كبار العلماء والفلاسفة»[3].

ويتحدث أبو حيان التوحيدي في كتابه «الأمتاع والمؤانسة» عما كان يدور في هذه المجالس وما كان يبحث فيها من موضوعات مختلفة لنواحي العلم المتعددة: من تفسير لآراء الفلاسفة والمتكلمين في صلة الشريعة بالفلسفة، وعن العلاقة القائمة بين الحس والعقل، ودراسة العقل، والجنون، وتحديد معاني الطبيعة والعقل والنفس والروح والحق والباطل. وتفاوت البشر في العادات والأخلاق ونسبية المعرفة الإنسانية... إلى غير ذلك من موضوعات فلسفية صرفة»[4].

ولا يخفى أن المنتديات الأدبية والمجالس العلمية والمناظرات بقيت ظاهرة من الظواهر العلمية والثقافية طيلة العصر العباسي. فكانت الأبحاث التاريخية تلقى كل مساء في بلاط الإخشيد (334 هـ/ 946م) «وكان الفاطميون يعتمدون مجالس ومنتديات علمية من وقت لآخر... وكان بين سلاطين الأيوبيين ووزرائهم سادة نجباء وأفذاذ من العلماء لهم قدم راسخة في العلم والأدب، من أمثال القاضي الفاضل (596 هـ/ 1200م) الوزير الشهير الذي كان يجتمع في مجلسه عليه القوم»[5].

(1) ابن قتيبة: **عيون الأخبار**، 4/ 140 وما بعدها.
(2) انظر: الخياط المعتزلي: **الإنتصار والرد على ابن الراوندي**.
(3) زكريا إبراهيم: **أبو حيان التوحيدي أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء**، ص: 113.
(4) حسن عبد العال: **التربية الإسلامية في القرن الرابع الهجري**، ص: 199.
(5) محمد عطية الإبراشي: **التربية الإسلامية وفلاسفتها**، ص: 93.

ولقد ازدهرت هذه المجالس وصارت «عامة في الدولة التي خلفت الدولة العباسية أو تفرعت منها، وأكثر العقلاء والأقوياء من الملوك والسلاطين كانوا يعقدونها للمناظرة، كذلك فعل صلاح الدين الأيوبي وسيف الدولة الحمداني (356 هـ/ 967م) ونظام الملك (485 هـ/ 1092م)»[1] وغيرهم ممن اقتدى بهم أهل العلم والوجهاء والأطباء.

ولقد كانت هذه المجالس بحقّ مجالس لتعليم الكبار وتزويدهم بما يحتاجون إليه من معرفة تساعدهم على حل ما يعتريهم من قضايا أو مسائل سواء على المستوى الشخصي أو الاجتماعي؛ لأنهم كانوا من ذوي الشأن الذين يتحملون مسؤوليات على مختلف الصعد الدينية والوظيفية والعلمية والإدارية وتسيير شؤون البلاد. فكان المشارك بهذه المجالس ـ سلباً أو إيجاباً ـ كمن يسعى إلى رفع كفايته أو محو أميته في جانب من جوانب المعرفة التي ترتبط ارتباطاً موضوعياً بقضايا المجتمع وحاجاته.

دكاكين الوراقين:

ظهرت هذه الدكاكين في مطلع العصر العباسي[2]. وكان الهدف منها تجارة الكتب. غير أنّ هذا لم يقلل من دورها لجهة نشر الثقافة وتعميم المعرفة. فالمسلمون الذين كرّسوا مبدأ التربية المستمرة في كافة شؤون حياتهم، استفادوا من هذه الأمكنة في إطار جهودهم التعليمية خاصة بين صفوف الكبار.

ومن العوامل التي ساعدت على تفعيل دور دكاكين الوراقين كوسيط تربوي أنّ أصحابها أو القيمين عليها لم يكونوا «مجرد تجار ينشدون الربح، وإنّما كانوا ـ في أغلب الأحيان ـ أدباء ذوي ثقافة، يسعون للذة العقلية من وراء هذه الحرفة التي كانت تتيح لهم القراءة والاطلاع وتجذب لدكاكينهم العلماء والأدباء. وهكذا فقد حفلت قائمة أسماء الوراقين بشخصيات لامعة»[3] من أمثال: ابن النديم (438 هـ/ 1047م)، وابن كوجك (394 هـ/ 1004م)، وياقوت الحموي (626 هـ/ 1229م)،

(1) جرجي زيدان: **التمدن الإسلامي**، 5/ 680.
(2) فيليب حتي ورفاقه: **تاريخ العرب**، 2/ 502.
(3) أحمد شلبي: **تاريخ التربية الإسلامية**، ص: 63.

وغيرهم من أفاضل الكتاب والأدباء.

وبما أنّ معظم باعة الكتب كانوا ممن لهم علاقة بشؤون القراءة والكتابة والتأليف، فقد نجحوا في أنّهم «جعلوا حوانيتهم لا مخازن كتب وحسب، بل مراكز للأبحاث الراقية»[1].

ولقد كان من عادة الإمام أبي الفرج الأصفهاني (356 هـ/ 967م) أن يتردد إلى هذه الدكاكين ويدلي برأيه في الجلسات التي كانت تعقد بحضوره وحضور غيره من علماء المسلمين. ومن أمثلة ذلك ما حصل بينه وبين أبي الحسن البقال[*]. الذي صوّب له أبو الفرج خطأه في فهم أحد الأبيات الشعرية التي طالما رددها[2].

وكان سوق الوراقين القريب من البصرة بمثابة مركز للثقافة العربية يتبادل فيه العلماء آراءهم «لذلك لا عجب إذا ظهر عام (391 هـ/ 1000م) «كتاب تبادل الآراء» وهو يشتمل مائة حديث وستة جرت في بيت فيلسوف حيناً وفي سوق الوراقين أحياناً. وفي ذلك ظهر فهرس ابن النديم وهو من أشهر تجار الكتب كما كان من كبار العلماء»[3].

ولقد ظهرت بمصر ودمشق أسواق حظيت بشهرة واسعة، وكان موضع سوق مصر باتجاه الجانب الشرقي من جامع عمرو بن العاص في أول زقاق القناديل[4].

ولا يزال هذا السوق مقصداً لأهل العلم وملتقى لهم. أمّا سوق دمشق فقد كان أيضاً يزخر بالكتب يدل على ذلك الحريق الذي شب فيه سنة (681 هـ/ 1282م) حيث أحرق لشخص واحد أكثر من خمسة عشر ألف مجلدة سوى الكراريس[5].

---

(1) فيليب حتي ورفاقه: **تاريخ العرب**، 2/ 502.

(*) علي بن يوسف البقال، يعرف بابن البقال ويكنى أبا الحسن وكان ابن العميد يقدمه على الناس كلهم.

(2) ياقوت: **معجم الأدباء**، 5/ 157 ـ 158.

(3) سيجريد هونكة: **فضل العرب على أوروبا**، ص: 295.

(4) المقريزي: **الخطط**، 2/ 102.

(5) أحمد بدوي: **الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية**، ص: 86.

وهكذا فإنّ دكاكين الوراقين قد ازدهرت «وانتشرت... بسرعة انتشاراً ملحوظاً... وحفلت كل مدينة بكل محلة بعدد وافر منها، وبالتالي بعدد من العلماء القيمين عليها والوافدين إليها من علماء وطلاب»[1]. ولقد اعترف للدكاكين بفضلها العلمي وللمسلمين بالريادة في هذه الصنعة التي أسهمت في جعل المجتمع الإسلامي مجتمعاً متعلماً.

ولما كان التعليم ظاهرة عامة في المجتمع الإسلامي ولما «لم تكن الثقافة العلمية والأدبية والدينية مقصورة على الأساتذة والطلاب وأصحاب المكتبات، بل كانت عامة بين المسلمين فقد انتقل النشاط العلمي والأدبي والثقافي من حوانيت بائعي الكتب إلى حوانيت البيع والشراء»[2]. فلقد كان يعقد مجلس للعلم في دكان أبي هاشم بن سلامة (403 هـ/ 1011م) في السوق العتيق ببغداد في النهار، وكان المعلم يتابع إلقاء دروسه في الجامع «بالعشي... من المغرب إلى العشاء الآخرة»[3].

وكان الإمام أحمد بن حنبل (240 هـ/ 856م) لا يتردد في أن يعلم أو يروي الأحاديث في هذه الدكاكين[4]. ويُروى «أن رجلاً رحل في طلب العلم إلى بغداد فقرأ ما شاء الله، ثم أراد الانصراف إلى وطنه، فاكترى دابة يركبها ليخرج من البلدة، ولكنه وقف ليشتري صاحب الدابة بعض حاجاته، فسمع الطالب نقاشاً علمياً يدور بين اثنين من أصحاب الحوانيت المتجاورة، فطلب الطالب من صاحب الدابة إعادته إلى بغداد قائلاً: إن بلداً باعته هذه المنزلة من العلم لا ينبغي أن يرحل عنه»[5].

ويقول السبكي (771 هـ/ 1370م): إنّ الفقيه أبا بكر الصبغي (344 هـ/ 955م) الذي كان يبيع الصبغ في دكانه «كان حانوته مجمع الحفاظ والمحدثين في

(1) محمد منير سعد الدين: **دراسات في تاريخ التربية عند المسلمين**، ص: 77.
(2) محمد عطية الإبراشي: **التربية الإسلامية وفلاسفتها**، ص: 105.
(3) الخطيب البغدادي: **تاريخ بغداد**، 11/ 137.
(4) الخطيب البغدادي: **تاريخ بغداد**، 2/ 39.
(5) أحمد شلبي: **تاريخ التربية الإسلامية**، ص: 66.

مربعة الكرمانيين على باب خان مكي وكنا نقرأ. . . على باب حانوته»[1].

يستخلص مما سبق «أنّ الحياة الثقافية ـ عند المسلمين ـ كانت وثيقة الصلة بالشعب فلم تكن المعرفة حكراً على طائفة دون أخرى، بل كادت تكون أمراً شائعاً في طبقات الشعب جميعها»[2]. ولقد دفعت هذه الحالة حركة التعليم إلى الأمام، وجعلت من حوانيت الوراقين وغيرها من الحوانيت أمكنة لتعليم الكبار، شأنها شأن غيرها من المراكز الثقافية التي لعبت دوراً بارزاً على صعيد التعليم الجماهيري في مجتمع طالما تطلع لأن يكون مجتمعاً معلّماً متعلّماً، وفق ما أراد له الرسول الكريم منذ اللحظة الأولى لبزوغ فجر الإسلام.

المكتبات:

لقد أعطى القرآن الكريم للقراءة والكتابة قيمة عظيمة، وتجلى ذلك بوضوح في قوله تعالى مخاطباً رسوله الكريم: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾[3]. وفي موضع آخر يعاود القرآن الكريم تأكيده على أهمية العلم بشكل عام، وتعليم الكتابة بشكل خاص، عندما يأمر الناس بأن يكتبوا الدَّين بأجله منعاً للمنازعة. يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ۚ﴾[4] وينبه الله تعالى الأطراف أن لا يملّوا كتابة الدّين الذي تداينوا به مهما كان صغيراً أو كبيراً، لقوله تعالى في الآية نفسها: ﴿وَلَا تَسْـَٔمُوٓا۟ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا﴾.

ولتشجيع الناس على التعليم مدح القرآن الكريم المتعلمين وعظّم مكانتهم. ومما جاء في ذلك التمييز بين من يعلمون ومن لا يعلمون. يقول تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ﴾[5]. ويقول أيضاً: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ

(1) السبكي: **طبقات الشافعية الكبرى**، 2/ 168.
(2) سعيد إسماعيل علي: **معاهد التربية الإسلامية**، ص: 486.
(3) سورة: العلق، الآيات: 1 ـ 5.
(4) سورة: البقرة، الآية: 282.
(5) سورة: الزمر، الآية: 9.

وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾[1]. ويقول الرسول ﷺ: «**اغد عالماً، أو متعلماً، أو مستمعاً، أو محباً، ولا تكن الخامسة فتهلك**»[2].

فكان من أزكى ثمار هذه البذرة التي زرعها الإسلام ورعاها الرسول ﷺ، أن تعلقت أفئدة المسلمين بالنبي ﷺ، ليتعلموا على يديه. وكان أول كتاب عكفوا على تلاوته وتدارسه كتاب الله تعالى، الذي ملك عليهم أفئدتهم ومشاعرهم، وأنساهم المال والأهل والولد ولازمهم في حلهم وترحالهم وقيامهم وقعودهم.

والعرب الذين أحبوا الكلمة الطيبة، وكانت تسحرهم البلاغة والفصاحة عندما «تحضروا واستقروا في البلاد المفتوحة استمروا على تأثرهم بالبلاغة والفصاحة، وأضيف إلى ذلك حب الكتب واحترامها. لقد أحضروا معهم من شبه جزيرتهم كتابهم المقدس القرآن الكريم الذي تمركز حوله عدد كبير جداً من الدراسات. ولكنهم وجدوا في البلاد الأخرى كتباً كثيرة، فلم يدعهم حبهم واحترامهم لكتابهم العزيز إلى احتقار وإتلاف الكتب الأخرى، بل العكس اهتموا بها ونموها وطوَّروها وحفظوها، وبنوا لها أماكن لإيوائها هي ما كانوا يسمونها خزائن الكتب وهي ما تعرف الآن بالمكتبات»[3].

ومن أشهر الذين أحبوا الكتب وأطنبوا في مدحها وتبيان فضائلها والدفاع عنها الجاحظ في كتابه الحيوان. ومما يقوله عنها: «والكتاب هو الجليس الذي لا يُطريك، والصديق الذي لا يغريك والرفيق الذي لا يملّك والمستميح الذي لا يشتريك، والجار الذي لا يستطيبك، والصاحب الذي لا يريد استخراج ما عندك بالملق ولا يعاملك بالمكر ولا يخدعك بالنفاق، ولا يحتال لك بالكذب»[4].

والحقيقة أنّ «إحدى ميزات الحضارة الإسلامية الرئيسة هي حبها للكتب ونشرها المعرفة عن طريق الكتب، واحتضانها المكتبات، وتعميمها، وجعلها في متناول جميع أفراد الشعب دون اعتبار للعمر، أو الجنس، أو الدين، أو اللون، أو الثقافة. لم يبز شعب من شعوب الأرض كلها المسلمين في حبهم للكتب وفي

(1) سورة: المجادلة، الآية: 11.
(2) الهيثمي: **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، 1/ 122.
(3) محمد ماهر حمادة: **المكتبات في الإسلام**، ص: 8 ـ 9.
(4) الجاحظ: **الحيوان**، 1/ 50 ـ 51.

حدبهم عليها، ترى أحدهم وتسمعه يناجي كتابه وكأنّه يناجي ولده الوحيد أو أليفه الحبيب»[1].

فهذا ياقوت يصف أحدهم عندما حطّ به الزمان، وعزم على بيع كتبه فيقول «رأيته يخرجها ويبيعها، وعيناه تذرفان بالدموع كالمفارق لأهله الأعزاء والمفجوع بأحبابه الأوداء فقلت له: هوّن عليك أدام الله أيامك، فإنّ الدهر ذو دول وقد يسعف الزمان ويساعد وترجع دولة العز فتستخلف ما هو أحسن منها فقال: حسبك يا بني هذه نتيجة خمسين سنة من العمر أنفقتها في تحصيلها وهب أنّ المال يتيسر والأجل يتأخر وهيهات فحينئذ لا أحصل من جمعها بعد ذلك إلّا على الفراق الذي ليس بعده تلاق»[2].

ومن الوزراء الذين أغرموا بالكتب جمال الدين القفطي (624 هـ/ 1227م) فقد «جمع من الكتب ما لا يوصف... وكان لا يحب من الدنيا سواها، ولم يكن له دار ولا زوجة، وأوصى بكتبه للناصر صاحب حلب (659 هـ/ 1261 م) وكانت تساوي خمسين ألف دينار وله حكايات غريبة في غرامه بالكتب»[3].

وبفضل حب المسلمين للعلم وتقديرهم للكتب نشأت المكتبات في المجتمع الإسلامي، وازدهرت بشكل لافت وسريع بما يتفق مع توجهات المسلمين الدينية، علماً أنّ هذه المكتبات كانت معروفة قبل الفتح. ولقد استفيد من كتبها في إثراء المكتبة الإسلامية. ففي العصر الأموي عني خالد بن يزيد بن معاوية (90 هـ/ 708م) «بإخراج كتب القدماء في الصنعة... وهو أول من ترجم له كتب الطب والنجوم وكتب الكيمياء»[4]. وكذلك فعل عمر بن عبد العزيز (61 ـ 101 هـ/ 681 ـ 720م) الذي عمد إلى ترجمة ما رآه مناسباً من كتب الطب التي وجدها في الخزائن التي كانت تحت يده[5].

(1) محمد ماهر حمادة: **المكتبات في الإسلام**، ص: 9.
(2) ياقوت: **معجم الأدباء**، 3/ 216.
(3) محمد شاكر الكتبي: **فوات الوفيات**، 3/ 118.
(4) ابن النديم: **الفهرست**، ص: 680.
(5) ابن جلجل: **طبقات الأطباء والحكماء**، ص: 61.

ولم تكن المكتبات الإسلامية وليدة الصدفة، وإنّما كانت «وليدة الحاجات المحلية للمجتمع الإسلامي التي أحس بها المسلمون بعد أن استوطنوا البلاد المحررة، وبعد أن انتشر العلم والتعلم والتعليم في طول البلاد الإسلامية وعرضها. والواقع أن النهضة العلمية التي بدأها الإسلام وتبناها المسلمون كانت سبباً من الأسباب الهامة التي دفعت المسلمين للاهتمام بالكتاب والمكتبة. فالكتب كانت مثار اهتمام المسلمين واحترامهم لطالما هي أوعية للمعرفة، ومصدر الاهتمام بها نابع من حض الإسلام على العلم والتعلم»[1].

ومع اتساع أفق المسلمين العقلي وتقدمهم الحضاري، وتنوع اهتماماتهم تبعاً لمتطلبات حياتهم بمختلف الاتجاهات «زاد بنفس النسبة عدد المكتبات، وتنوعت أغراضها حتى شملت جميع الأغراض التي تأسست المكتبات من أجلها»[2]. ولذلك لم يكن غريباً أن يوجد في العالم الإسلامي جميع أنواع المكتبات التي يمكن تصنيفها تبعاً لروادها إلى ثلاثة أنواع:

1 ـ المكتبات العامة:

وهي المكتبات التي كانت تفتح أبوابها لكافة طَالبي العلم من دونما تفرقة أو تمييز. ولقد «أنشئت هذه المكتبات بالمساجد لتكون في متناول الدارسين فيها والوافدين إليها. كما أنشئت أحياناً لتكون نواة لمعهد يستقبل الطلاب فيجدون فيه العلم والمعرفة، ثم أنشئت متصلة بالمدارس عندما بدأت هذه بالظهور والانتشار»[3].

وبالنسبة لمكتبات المساجد يمكن القول: إنّ انتشارها كان واسعاً وسريعاً، لأنها ارتبطت بالمساجد التي كانت منتشرة في طول البلاد وعرضها. وقد كانت المساجد بادىء الأمر «تستخدم كمستودعات للكتب وأصبحت خزائنها غنية بالكتب لا سيما الدينية التي كان الناس يهبونها لها أو يقفونها فيها على القراء»[4].

---

(1) محمد منير سعد الدين: **دراسات في تاريخ التربية عند المسلمين**، ص: 91.
(2) محمد ماهر حمادة: **المكتبات في الإسلام**، ص: 82.
(3) أحمد شلبي: **تاريخ التربية الإسلامية**، ص: 181.
(4) فيليب حتي ورفاقه: **تاريخ العرب**، 2/ 501.

ومن جملة الذين وقفوا كتبهم علي بن طاهر السلبي (500 هـ/ 1107م) الذي «كان ثقة وكانت له حلقة في الجامع وقف فيها خزانة فيها كتبه»[1]. ويذكر ابن عبد ربه (328 هـ/ 940م) أنّ في المسجد الأقصى «من المصاحف الجامعة سبعون مصحفاً، وفيه من الكبار التي في الورقة منها جلد ستة مصاحف على كراسي تجعل فيها»[2]. ولقد وقف الخطيب البغدادي كتبه على المسلمين وسلمها قبل مماته لأحد أصدقائه[3].

وإذا كان وقف الكتب ابتداء اقتصر على المصاحف إلّا أنّه كان فاتحة لإنشاء المكتبات العامة الغنية بمختلف أنواع الكتب فيما بعد. ومن أشهر مكتبات المساجد خزانة كتب الوقف بمسجد الزيدي أبو الحسن علي بن أحمد المتوفى ببغداد سنة (575 هـ/ 1179م) الذي «اشترى... داراً بدرب دينار الصغير وبناها مسجداً واشترى بباقي الذهب كتباً ووقفها في المسجد ينتفع الناس بها»[4].

أما المكتبات التي كانت بمثابة معاهد فقد لعبت دوراً كبيراً في نشر الثقافة من خلال تيسير قراءة الكتب لطالبي العلم. ومن أشهر هذه المكتبات بيت الحكمة التي يمكن القول: إنّ بداياتها تعود لخلافة أبي جعفر المنصور (158 هـ/ 774م) الذي أمر بترجمة العديد من كتب الطب والنجوم والهندسة إضافة إلى كتب الحديث والأدب والتاريخ التي ألفت له. فلقد طلب المنصور من ملك الروم «أن يبعث إليه بكتب التعاليم مترجمة فبعث إليه بكتاب أوقليدس وبعض كتب الطبقات. وقرأها المسلمون واطلعوا على ما فيها»[5].

وإذا كان المهدي (169 هـ/ 785م) الذي أوصي له بهذه الخزانة قد أهملها فإن هارون الرشيد (193 هـ/ 809م) أولاها بالغ الأهمية وأضاف لها الشيء الكثير. ولكن الازدهار الحقيقي لهذه الخزانة كان في عهد المأمون (218 هـ/ 833م) الذي اهتم بعلوم الحكمة، وحصل كتبها وأمر بنقلها إلى العربية مما أدى إلى توسيع بيت

(1) ياقوت: **معجم الأدباء**، 5/ 225.
(2) ابن عبد ربه: **العقد الفريد**، 7/ 255.
(3) ياقوت: م. س، 1/ 252.
(4) سبط ابن الجوزي: **مرآة الزمان في تاريخ الأعيان**، القسم الأول من الجزء الثامن، ص: 356 ـ 357.
(5) حاجي خليفة: **كشف الظنون**، 1/ 679.

الحكمة وازدياد عدد كتبه بما أضيف إليه من الكتب التي يؤتى بها من آسيا الصغرى والقسطنطينية وجزيرة قبرص، وما كان يجمعه السريان من كنائسهم وأديرتهم من كتب يعهد بها إلى أجل العلماء وأفصحهم[1].

وهناك من يرى أنّ هذه المكتبة أنشئت استجابة لنصيحة يوحنا بن ماسويه (243 هـ/ 857م) لهارون الرشيد بأن ينشىء داراً كبيرة للكتب، وهي تلك الدار التي اتسعت واشتهرت لاحقاً وأصبحت تعرف بدار الحكمة[2].

ويرى آخرون أنّ «أول مكتبة عامة هي مكتبة دار الحكمة التي أنشأها المأمون في بغداد وجمع لها الكتب اليونانية من الإمبراطورية البيزنطية، وترجمت إلى العربية، وكانت المكتبة تحوي كل العلوم التي اشتغل بها العرب... وقد ظلت إلى مجيء التتار سنة 656 هـ/ 1258م»[3].

غير أنّ ابن النديم في ترجمته لعلاّن الشعوبي يقول بأنّ: «أصله من الفرس وكان راوية عارفاً بالأنساب والمثالب والمناظرات منقطعاً إلى البرامكة، وينسخ في بيت الحكمة للرشيد والمأمون والبرامكة»[4]. مما عزز الرأي القائل بأنّ هارون الرشيد هو مؤسس هذه المكتبة التي ذاع صيتها في طول البلاد وعرضها.

ولم تقتصر مهمة خزانة الحكمة على التأليف والترجمة «بل كانت تقوم بالتأليف والبحث العلمي»[5]. فعلى الرغم من نزعتها التخصصية فإنّها لم تفقد صبغتها الشعبية. فإلى جانب طلاب الدراسات الخاصة كان يقصد هذه المعاهد الأفراد من مختلف الثقافات والأغراض للدراسة أو النسخ أو الاطلاع[6].

ومن الخزائن التي ذاع صيتها أيضاً دار الحكمة بالقاهرة التي أنشأها الحاكم بأمر الله الفاطمي سنة (395 هـ/ 1005م) ونقل إليها أعداداً كبيرة من الكتب على

(1) سعيد الديده جي: **بيت الحكمة**، ص: 11 ـ 21.
(2) محمد عاطف البرقوقي وزميله: **الخوارزمي العالم الفلكي الرياضي**، ص: 79.
(3) أحمد أمين: **ضحى الإسلام**، 2/ 65 ـ 66.
(4) ابن النديم: **الفهرست**، ص: 209.
(5) عبدالغني عبود: **مذكرات في تاريخ التربية**، ص: 143.
(6) أسماء حسن فهمي: **مبادىء التربية الإسلامية**، ص: 31.

كتب نفيسة في سائر العلوم والآداب والخطوط المنسوبة، مما لا يتأتى مثله مجتمعاً لأحد من الملوك[1].

وهناك مكتبات عامة أتت متأخرة بعض الشيء لارتباطها بالمدارس. ومعلوم كما يقول المقريزي: إنّ «المدارس مما حدث في الإسلام، ولم تكن تعرف في زمن الصحابة ولا التابعين، وإنّما حدث عملها بعد الأربعمائة من سني الهجرة»[2].

ولا ريب في أنّ المكتبات المدرسية قد لعبت دوراً هاماً على الصعيد التعليمي إذ إنّها يسّرت سبل الحصول على المراجع والكتب اللازمة للتلاميذ وجنّبتهم «جشع التجار ومغالاتهم في أثمان الكتب... ولم يكن في مقدور الطلبة أمام جشع بعض التجار دفع ثمن الكتاب. وأجرة إعارته، مما جعل للمكتبة المدرسية أهمية قصوى في حياة الباحثين الدارسين، فبدونها لم يتمكنوا من الاطلاع أو مراجعة ما يمليه عليهم أساتذتهم من آراء الفقهاء وغيرهم. كما أتاحت لهم فرصة ذهبية وهي حرية البحث والاطلاع في العلوم المختلفة بصرف النظر عما إذا كانت تدرس لهم... كما أعانتهم على سرعة الفهم، ومتابعة الأساتذة، والتجاوب معهم باطلاعهم على الدروس التي ستلقى عليهم في اليوم التالي شرحاً وإملاءً[3].

ولما كانت المكتبات الإسلامية وليدة حاجة تتعلق بشؤون المسلمين الدينية والدنيوية، كان من الطبيعي عندما استدعت الظروف إنشاء المدارس في البلاد الإسلامية أن يكون «في كل مدرسة مكتبة مزودة بكثير من الكتب الكبيرة والصغيرة في مختلف العلوم. وأشهر المكتبات المدرسية، مكتبة المدرسة النظامية ببغداد التي أنشأها نظام الملك، وزودها بكثير من الكتب الثمينة والمحفوظات النادرة... وقد ظلت المدرسة النظامية موضع عناية الخلفاء والعظماء»[4].

وكانت دار الكتب بالمستنصرية «من المراكز الثقافية المهمة ببغداد»[5]. فلقد

(1) المقريزي: **الخطط**، 2/ 286.
(2) المقريزي: م. ن، 2/ 363.
(3) ماجد توفيق الجندي: **دراسات وبحوث جديدة في تاريخ التربية الإسلامية**، ص: 151.
(4) محمد عطية الإبراشي: **التربية الإسلامية وفلاسفتها**، ص: 102.
(5) ناجي معروف: **تاريخ علماء المستنصرية**، ص: 13.

عني المستنصر (640 هـ/ 1242م) بهذه المدرسة ومكتبتها عناية شديدة، فزودها بالكتب من مكتبته الخاصة التي كان قد أنشأها من قبل. ويُذكر أنّه نقل «إلى المدرسة من الربعات الشريفة، والكتب النفيسة المحتوية على العلوم الدينية والأدبية ما حمله مائة وستون حملاً وجعلت في خزانة الكتب»[1].

وإذا كان هناك من يزيد أو ينقص هذا العدد إلّا أنّ ما هو أكيد أنّ عدد الكتب بقي على ازدياد هائل في هذه المكتبة. ومن زارها في نهاية القرن السابع كان يرى «الكتب المنضدة والتي لم يوجد مثلها في العالم»[2].

والحقيقة أنّ حسن تنظيم هذه المكتبة وغناها بالكتب جعلها محط أنظار طلاب العلم والعلماء والبحاثة الذين كانوا يقصدونها من الخارج. ومما ساعد على ذلك أنّ الخليفة «نقل إليها من الربعات الشريفة والكتب النفيسة والأصول المضبوطة المحتوية على جميع العلوم مائتين وتسعين حملاً سوى ما نقل إليها بعد ذلك، وشرط أن يكون... عشرة يشتغلون بعلم الحديث النبوي ليفيدوا كل طالب علم في هذا المجال»[3].

وفي دمشق أيضاً ازدهرت حركة بناء المكتبات الملحقة بالمدارس فعندما أنشأ نور الدين زنكي (569 هـ/ 1174م) المدارس وقف بها كتباً كثيرة على طلاب العلم[4]. وكذلك فعل من جاء بعده من حكام المسلمين وولاة أمرهم.

ولقد ألحقت المكتبات بالبيمارستانات أيضاً، وكانت هذه المكتبات مراكز للبحث والدراسة حيث «كان الأساتذة لا يكتفون بالشرح، بل يأخذون الطلاب إلى المكتبة ويدلونهم على المراجع في موضوع الدرس، وقد يظل الطلاب في قراءات ومناقشات مع الأساتذة داخل المكتبة بالساعات الطوال»[5].

أخيراً يمكن أن نخلص إلى ما مفاده أن دور المكتبات الملحقة

---

(1) ابن الفوطي: **الحوادث الجامعة والتجارب النافعة**، ص: 54.
(2) ابن الفوطي: **تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب**، 4/ 28.
(3) عبد الرحمٰن ابن قنينو الأربلي: **خلاصة الذهب المسبوك مختصر من سير الملوك**، ص: 288.
(4) النعيمي: **الدارس في تاريخ المدارس**، 1/ 608.
(5) عبدالرحمٰن النقيب: **الإعداد التربوي والمهني للطبيب عند المسلمين**، ص: 121.

بالبيمارستانات والمدارس وغيرها من المؤسسات لم يقتصر على تزويد الطلاب بالكتب، وإنّما تعدى ذلك لتكون هذه المكتبات أمكنة للتربية المستمرة، خاصة وأنها ـ علاوة على تزويد الطلاب بالكتب ـ أصبحت مراكز للتعلم والتعليم عن طريق الحوارات العلمية، والأدبية والمناقشات في مختلف أنواع العلوم.

2 ـ المكتبات الخاصة

هي تلك المكتبات التي أنشأها العلماء والأدباء والحكام وذوي النفوذ من رجال السلطة والأغنياء لاستعمالهم الخاص. ويمكن القول: إنّ بدايات هذا النوع من المكتبات يعود لمعاوية بن أبي سفيان الذي كان بعد أن يسمر ثلث الليل وينام ثلثه «يقوم فيقعد فيحضر الدفاتر فيها سِيَر الملوك وأخبارها والحروب والمكايد فيقرأ ذلك عليه غلمان له مرتبون قد وكلوا بحفظها وقراءتها...»[1] مما يعني أنّه كان لدى الخليفة مكتبة خاصة به ولها جهاز خاص لتنظيمها والإشراف عليها. فلقد استدعى عبيد الجرهمي[2] من صنعاء إلى دمشق ليحدث الخليفة عن الأخبار المتقدمة وملوك العرب والعجم. وبعد أن حدثه أمر معاوية بتدوين أخباره[3].

ويبدو أنّ هذا النوع من المكتبات انتشر انتشاراً واسعاً «إذ كان من الصعب أن نجد عالماً أو أديباً دون أن يكوّن له مكتبة يرجع إليها في دراسته واطلاعه»[4]. وكذلك الحال بالنسبة للحكام ورجال الدولة الذين كانوا يهتمون بالقضايا العلمية والأدبية والفكرية ويشجعون على نشرها.

وتجدر الإشارة إلى أنّ هذه المكتبات غالباً ما كانت نصف عامة ـ إن جاز التعبير ـ لأن هناك من كان يبيحها للناس أو للأصدقاء، أو من يثق بهم.

ومن المكتبات الخاصة التي سمح أصحابها للآخرين لينتفعوا بما فيها من كتب، وكان لها دور تعليمي مكتبة الفتح بن خاقان (247 هـ/ 861م) الذي «كان له

(1) المسعودي: **مروج الذهب**، 3/ 222.

(2) عبيد بن شرية الجرهمي أدرك النبي وعاش إلى أيام عبدالملك وله كتاب الأمثال وكتاب الملوك وأخبار الماضين.

(3) ابن النديم: **الفهرست**، ص: 180.

(4) أحمد شلبي: **تاريخ التربية الإسلامية**، ص: 199.

خزانة جمعها له علي بن يحيى المنجم (275 هـ/ 888م) لم ير أعظم منها كثرةً وحسناً وكان يحضر داره فصحاء الأعراب وعلماء الكوفيين والبصريين»[1]. وكان ابن خاقان من أشهر الذين عرفوا بحبهم للكتب وكان «يحضر لمجالسة المتوكل (247 هـ/ 861م) فإذا أراد القيام لحاجة أخرج كتاباً من كمه أو خفه وقرأه في مجلس المتوكل وإلى عوده إليه حتى في الخلاء»[2].

وكان لعلي بن يحيى قرب بغداد «قصر جليل فيه خزانة كتب عظيمة يسميها خزانة الحكمة يقصدها الناس من كل بلد فيقيمون فيها يتعلمون منها صنوف العلم. والكتب مبذولة في ذلك لهم والصيانة مشتملة عليهم والنفقة في ذلك من مال علي ابن يحيى، فقدم أبو معشر المنجم (272 هـ/ 885م) من خراسان يريد الحج، وهو إذ ذاك لا يحسن كبير شيء من النجوم، فوصفت له الخزانة فمضى ورآها فهاله أمرها، فأقام بها وأضرب عن الحج وتعلم فيها علم النجوم وأغرق فيه حتى ألحد وكان ذلك آخر عهده بالحج والدين والإسلام»[3].

وكان للمستعصم خزانتان للكتب أنشأهما في داره وكانت الأولى: عام 641 هـ/ 1243م. أما الثانية: فقد أنشأها في آخر أيامه. ولقد سلم الأولى لابن النيار(*) بينما سلم الثانية لابن فاخر (693 هـ/ 1292م) وكان الخليفة يتردد على كلا الخزانتين بالتناوب[4].

والحقيقة أنّ المكتبات بشقيها العام والخاص استمرت في الازدياد بحيث كان يصعب إحصاؤها؛ لأنّ ظاهرة حب الكتب والاهتمام بها كانت عامة بحيث لم يخل بيت منها ولو للتباهي. واستمر هذا الحال حتى نهاية العصر العباسي ـ لا بل وامتد إلى بعد ذلك ـ حتى إنّ وزير المستعصم، مؤيد الدين العلقمي (656 هـ/ 1258م) أنشأ داراً للكتب كان قوامها أكثر من عشرة آلاف مجلد من نفائس الكتب[5]. وابن

(1) ابن النديم: م. س، ص: 230.
(2) ابن النديم: **الفهرست**، ص: 230.
(3) ياقوت: **معجم الأدباء**، 5/ 467.
(*) الشيخ صدر الدين علي بن النيار شيخ الخليفة المستعصم وخازن مكتبته.
(4) ابن الطقطقي: **الفخري في الآداب السلطانية**، ص: 269.
(5) ابن الفوطي: **الحوادث الجامعة**، ص: 209.

الفوطي (723 هـ/ 1323م) نفسه الذي تنقل عنه هذه المعلومات بنى لنفسه مكتبة خاصة تعتبر من المكتبات ذات القيمة العلمية الكبيرة فكان «منزله ومكتبته ملتقى طلاب العلم من أهل بغداد وغيرهم»[1] ممن آمنوا بأنّ التربية عملية مستمرة مدى الحياة.

الربط والزوايا والخوانق:

لم يقتصر تعليم الكبار عند العرب على الأمكنة التي سبق ذكرها، فلقد كان هناك أمكنة وجدت أصلاً لأهداف معينة، غير أنّ ذلك لم يمنع من أن يكون لها دور تعليمي إلى جانب الأغراض التي وجدت من أجلها، علماً أنّ هذا الدور لم يرقَ للمستوى الذي وصل إليه دور المساجد أو المدارس في مجال التربية والتعليم. ومن هذه الأمكنة الربط والزوايا والخوانق.

1 ـ الربط

الرباط لغة: هو المواظبة على الأمر وملازمة ثغر العدو كالمرابطة، والمرابطة: أن يربط كل من الفريقين خيولهم في ثغره وكل معد لصاحبه فسمي المقام في الثغر رباطاً ومنه قوله تعالى: ﴿وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ﴾[2]. وقد يعني الرباط انتظار الصلاة بعد الصلاة[3].

وجاء في الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «**ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا، ويرفع به الدرجات**» قالوا: بلى يا رسول الله قال: «**إسباغ الوضوء على المكاره وكثرة الخطى إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرباط**»[4]. فإذا كان الرباط في الأصل الإقامة على جهاد العدو بالحرب وارتباط الخيل وإعدادها، فشبه ما ذكر من الأفعال الصالحة به، وهكذا فإنّ المواظبة على الطهارة والصلاة كالجهاد في سبيل الله وقيل إنّ الرباط هنا «اسم لما يربط به الشيء، أي

(1) ناجي معروف: **تاريخ علماء المستنصرية**، ص: 300.
(2) سورة: آل عمران، الآية: 200.
(3) الفيروز آبادي: **القاموس المحيط**، 2/ 360 ـ 361.
(4) مسلم: **صحيح مسلم**، 1/ 219.

يشد. يعني أنّ هذه الخلال تربط صاحبها عن المعاصي وتكفه عن المحارم»[1].

فالرباط إذن يتصل بالعبادة بمعنييها العام والخاص، حيث يشتمل الأول: على الجهاد وما يتفرع عنه، بينما يقتصر الثاني: على الصلاة وما يترتب عليها. ويشكل المكان القاسم المشترك بين هذين المستويين من العبادة، بالنسبة لعلاقتهما بالرباط الذي يبدو وكأنه في الواقع رباطان: **الأول**: هو رباط الجهاد، **والثاني**: هو رباط الزّهاد، على اعتبار أنّ الرباط قد أطلق بادىء الأمر على المكان الذي كان يرابط فيه جنود المسلمين للجهاد في سبيل الله ـ وفقاً للمعنى الأول للكلمة ـ بينما أطلق لاحقاً على المكان الذي يرابط فيه الصوفية للعبادة والانقطاع إلى الله تعالى تبعاً للمعنى الثاني للكلمة.

ويلاحظ أنّ رباط الجهاد كان وليد حاجة ماسة، لأنّ سواحل شمال أفريقيا وبلاد الشام التي خضعت للمسلمين كانت مواجهة للأعداء من الروم وغيرهم. لذلك عمد المسلمون إلى ترميم المدن التي خضعت لسيطرتهم، وعملوا على تحصينها وتعزيزها بالجند، جنباً إلى جنب مع تلك التي أنشأوها بعد الفتح. ولقد أطلق على هذه المدن الثغور أو الربط فكانت هناك ثغور داخلية وأخرى ساحلية.

أما ربط الزهد والتصوف فقد وجد منشئوها في حديث الرسول ﷺ الذي رد فيه على من سأله عن أفضل الناس ـ فقال ﷺ: «**مؤمن يجاهد بنفسه وماله في سبيل الله**» قال ثم من؟ قال: «**ثم رجل معتزل في شعب من الشعاب يعبد ربه ويدع الناس من شره**»[2] ـ مسوغاً ليعتزلوا الناس ويبتعدوا عنهم في الجبال والمغارات والأكواخ، ومن ثم إنشاء مقرات خاصة بهم «لا يشاركهم فيها غيرهم بحيث يستطيعون أن يمارسوا فيها رياضتهم وعباداتهم بمنأى عن الآخرين وهي نزل ومضافات يقيمون فيها بصورة دائمة أو مؤقتة وينظمون حياتهم بصورة جماعية بصحبة «معلمهم» ويهدي من مثاله وتوجيهه، ولما كان الهدف الأول من الإقامة فيها هو مغالبة إغراءات الحياة الدنيا ومجاهدة الرغبات، عدو الإنسان الداخلي، فهي ربط أو

(1) ابن منظور: **لسان العرب**، 7/ 302.
(2) مسلم: **صحيح مسلم**، 3/ 1503.

رباطات، مثلها في ذلك مثل الربط المعدة للجهاد ضد العدو الخارجي»[1].

غير أنّ الرباط الذي أطلق أول الأمر على المكان «الذي يرابط فيه جنود المسلمين للجهاد في سبيل الله ويلازمونه مترصدين للعدو، مستعدين للغزو. ثم صار الرباط يطلق على المكان الذي يرابط فيه الصوفية للعبادة والانقطاع إلى الله تعالى، والتوبة، ومجاهدة النفس، والحد من شهواتها»[2].

وما لبث أن تطور معنى الرباط فيما بعد ليصبح مأوى للعاجزين والنساء والمطلقات أو المهجورات واليتامى والفقراء، ومسكناً للفقهاء الغرباء وأحياناً لكبار العلماء. وهكذا أصبحت الربط تؤدي خدمات اجتماعية، ودينية، وثقافية، كالوعظ، والإقراء، والتحديث، والسماع، والإفتاء، ومنح الإجازات العلمية، وتصنيف الكتب»[3].

فالرباط لم يقتصر على كونه مركزاً للتصوف فحسب، بل كان مركزاً جهادياً وتعبدياً وتعليمياً. ولقد نشطت الربط وازدهرت في أيام الأيوبيين والمماليك[4]. حيث أنشىء في بلاد الشام وفي دمشق وحلب وبيت المقدس وغيرها من المدن الشامية كثير من الربط[5]. التي كان بعضها مكاناً لتعليم الكبار. ولقد نسبت بسبب نشاطها العلمي ـ في كثير من الأحيان ـ إلى الشيخ الذي كان يتولى أمر التدريس فيها كالرباط البياني في دمشق نسبة إلى الشيخ أبي البيان نبأ بن محمد بن محفوظ القرشي الدمشقي المعروف بابن الحوراني (551 هـ/ 1156م) الذي «كانت له معرفة تامة باللغة والأدب الفقه، وكان شاعراً زاهداً عابداً سمع من عدد من العلماء وله مصنفات ومجاميع وشعر كثير. ولقد أخذ عنه الكثيرون وسمع منه طالبو العلم»[6].

ومن الربط التي اشتهرت أيضاً بنشاطها التعليمي الرباط الذي أنشأه بدمشق

(1) ملكة أبيض: **«مؤسسات التربية العربية في الشام حتى أواسط القرن الرابع الهجري»، في التربية العربية الإسلامية المؤسسات والممارسات**، 1/ 155.
(2) النعيمي: **الدارس في تاريخ المدارس**، 1/ 408.
(3) ناجي معروف: **أصالة الحضارة العربية**، 401.
(4) عبدالجليل عبدالمهدي: **الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى**، ص: 75.
(5) العلموي: **مختصر تنبيه الطالب**، ص: 160 ـ 163.
(6) ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة**، 5/ 324.

الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب (589 هـ/ 1193م)[1]. ومن الذين تولوا مشيخة هذا الرباط الشيخ جمال الدين أبو بكر محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله الشريشي (685 هـ/ 1286م). وكان ممن شهد لهم بعلمهم وكفاءتهم واستمر بتولي المشيخة إلى أن توفي بالرباط المذكور[2].

ومن أوائل الذين التحقوا بالربط، وكان لهم دور تعليمي سلمان الفارسي (36 هـ/ 656م) الذي قدم ساحل الشام للرباط. ومن جملة ما يُروى عنه أنّه حدث ببيروت ما كان قد سمعه من الرسول ﷺ عن الرباط حيث قال ﷺ: «**رباط يوم وليلة كصيام شهر وقيامه. ومن مات مرابطاً في سبيل الله أجير من فتنة القبر**»[3].

كما وأنّ الإمام أبو بكر محمد بن عبد الله ابن العربي (543 هـ/ 1148م) عندما خرج من الأندلس قاصداً المشرق العربي دخل بغداد ونزل في رباط أبي سعد بإزاء المدرسة النظامية حيث التقى بالإمام الغزالي وقرأ عليه ولازمه[4].

يفهم من هذا أنّ دور الرباط لم يقتصر على الجهاد والعبادة وإنّما تعداه للتعليم. ومما ساعد في تزايد هذا الدور أنّ الواقفين أنشأوا فيها الخزائن، ووقفوا فيها الكتب، وعينوا لها القوّام والخزان ومن يهتم بصيانتها وترتيبها ومناولتها. وكان الزهاد والمتصوفة الساكنون في الربط أو الذين يترددون عليها يرتادون المكتبات التي في ربطهم وكذلك كان يفعل الذي يرحلون في طلب العلم[5].

ويشير ابن شداد (684 هـ/ 1285م) إلى وجود ربط كانت تنسب إلى نساء في دمشق[6]. منها رباط صفية القلعية بنت قاضي القضاة عبد الله بن عطاء الحنفي[7]، ورباط زهرة بنت محمد بن أحمد بن حاضر (336 هـ/ 1237م)[8]. مما يعني أنّ

---

(1) عبدالقادر بدران: **منادمة الأطلال**، ص: 62.
(2) ابن كثير: **البداية والنهاية**، 13/ 208.
(3) ابن عساكر: **تاريخ مدينة دمشق**، 21/ 375.
(4) المقري: **نفح الطيب**، 1/ 338.
(5) ناجي معروف: **أصالة الحضارة العربية**، ص: 402.
(6) ابن شداد: **الأعلاق الخطيرة**، ص: 195 ـ 196.
(7) النعيمي: **الدارس في تاريخ المدارس**، 2/ 193.
(8) ابن العماد الحنبلي: **شذرات الذهب**، 5/ 159.

الأنشطة التعليمية التعلمية، وتعليم الكبار في الربط لم يقتصر على الرجال فحسب بل كان للنساء نصيب في ذلك.

2 ـ الزوايا

الزاوية من البيت ركنة[1]. «وهي مأخوذة من الفعل انزوى ينزوي، وبمعنى اتخذ ركناً من أركان المسجد للاعتكاف والتعبد. وقد أدرك خلفاء المسلمين الأوائل حاجة المعتكفين إلى الانزواء فأنشأوا لهم مساكن مُلْحقة بالمسجد كما نشاهد ذلك ماثلاً حتى الآن»[2] ببعض المساجد.

فعلى الرغم من أنّ الزوايا غالباً ما تكون في الأماكن النائية أو الخالية من السكان، إلّا أنّ ذلك لم يحل دون إلحاقها بناحية من نواحي المسجد، حيث كان يقام فيها حلقات للعلم تماماً، مثلما كان الحال بجامع عمرو بن العاص الذي كان فيه زوايا يدرس فيها الفقه، منها زاوية الإمام الشافعي التي كان يدرس بها الفقه فعرفت باسمه، وتولى التدريس بها من بعده أعيان الفقهاء وجلة العلماء. وكان هناك أيضاً الزاوية المجدية والصحابية والكمالية وغيرها من الزوايا التي كانت مشهورة في ذلك الوقت[3].

ولم تبق الزوايا ملحقة بالمساجد أو ضمن حدودها؛ لأنّها تطورت لاحقاً إلى «أبنية صغيرة منفصلة في جهات مختلفة من المدينة في شكل دور أو مساجد صغيرة يقيم فيها المسلمون الصلوات الخمس، ويعقدون بها حلقات دراسية في علوم الدين وما يتصل بالدين من العلوم النقلية والعقلية، كما يعقد فيها مشايخ الطرق الصوفية حلقات الذكر»[4].

ولعبت هذه الزوايا دوراً بارزاً في إعداد الصوفية. وقد تولد عن هذا الإعداد نوعان من الصوفيين «نوع أصيل سار في طرق العلم سير العلماء، واجتهد في الطلب، حتى حصل العلم الغزير، ومالت نفسه إلى الزهد واحتقار الدنيا، فانخلع

(1) الفيروز آبادي: **القاموس المحيط**، 4/ 339.
(2) حسن إبراهيم حسن: **تاريخ الإسلام**، 4/ 423.
(3) المقريزي: **الخطط**، 2/ 255 ـ 256.
(4) حسن إبراهيم حسن: **تاريخ الإسلام**، 4/ 423.

عنها وخلص للعبادة والمجاهدة[*]... والنوع الآخر: اتجه إلى العلم حتى حصل منه زاداً يسيراً ثم انصرف إلى المجاهدة الصوفية... عن إخلاص أو بدون إخلاص وسعى إلى كسب الجاه بين الجماهير بمظاهر من التقى والقدرة على القيام بما تصور الناس أنه خوارق أو كرامات فالتف حولهم العوام، وتمسكوا بهم تمسكاً شديداً وصانعهم الحكام إمّا عن جهل بحقيقة الدين، أو عن خبث للسيطرة على قلوب الجماهير»[1].

ولكن الصادقين منهم اتجهوا اتجاهاً علمياً، فكونوا من مريديهم جماعات صوفية تنتهج طريقاً قويماً، وتتبع منهجاً محدداً في التعليم والعبادة، حيث كان يلتقي التلاميذ بأساتذتهم في أوقات معينة بعد الظهر أو في المساء.

وكثرت الزوايا في العصر الأيوبي والمملوكي في كل من دمشق، وبيت المقدس وغيرها من المدن الشامية[2]. ومن هذه الزوايا التي كان لشيوخها أتباع ومريدون: الزاوية الدينورية نسبة إلى الشيخ عمر بن عبد الملك الدينوري (629 هـ/ 1231م)[3]، والزاوية الدينورية الشيخية نسبة إلى الشيخ صلاح الدين أبي بكر الدينوري (661 هـ/ 1261م)[4] والزاوية الفرنثية نسبة إلى الشيخ علي الفرنثي الزاهد (621 هـ/ 1224م)[5] والزاوية الملكية نسبة إلى منشئها الشيخ تقي الدين أبي محمد عين الملك بن رمضان الأخلاطي بعد قدومه إلى دمشق سنة (611 هـ/ 1214م)[6].

ومما لا شك فيه أنّ المريدين الذين اشتغلوا على شيوخهم في هذه الزوايا بالتصوف قد اشتغلوا بغيره من العلوم خاصة، وأنّ مشايخ هذه الزوايا كانوا

(*) من هؤلاء: الحارث بن أسد المحاسبي (243 هـ/ 757م) وأبو نصر السراج (378 هـ/ 988م) وأبو طالب المكي (386 هـ/ 996م) وعبد الكريم بن هوازن القشيري (465 هـ/ 1072 م) وأبو حامد الغزالي (505 هـ/ 1111 م) وغيرهم.

(1) حسين مؤنس: **عالم الإسلام**، ص: 215 ـ 216.

(2) انظر: محمد كرد علي: **خطط الشام**، 6/ 136 وما بعدها.

(3) ابن طولون: **القلائد الجوهرية**، 1/ 286 ـ 287.

(4) النعيمي: **الدارس في تاريخ المدارس**، 2/ 202.

(5) ابن العماد الحنبلي: **شذرات الذهب**، 5/ 95.

(6) ابن طولون: م. س، 1/ 303.

محدثين. ففي الزاوية الملكية كانت تُلْقى دروس في الحديث، وتقرأ فيها عدة بخاريات وكان فيها أيضاً محل لمجالس الذكر[1].

يتضح مما سبق أنّ الزوايا إلى جانب مهامها الصوفية كانت مراكز علمية ذات دور ملموس في مجال تعليم الكبار. وكان الذي يشرف على التعليم في الزاوية شيخها، فهو الذي يقرر ما يراه مناسباً من الدروس والعلوم المختلفة التي يجد فيها نفعاً لمريديه الذين يترددون عليه طلباً للعلم ورغبة في العبادة.

3 ـ الخوانق

الخوانق جمع: «خانقاه» والخانقاه: كلمة فارسية معناها: بيت ويقال: إن أصلها خونقاه، أي: الموضع الذي يأكل فيه الملك. ولقد حدثت الخوانق في الإسلام في حدود الأربعمائة من سني الهجرة وجعلت لتخلى الصوفية فيها للعبادة[2].

وعندما شاع التصوف في بلاد الشام شجع السلاطين الأيوبيون وأمراؤهم وعلماؤهم ونساؤهم هذه الظاهرة، وبنوا الخوانق، والزوايا، والرباطات لخدمة هذا الإتجاه، ولقد أنشأ السلطان نور الدين (569 هـ/ 1174م) «الربط والخانقاهات في جميع البلاد للصوفية، ووقف عليها الوقوف الكثيرة، وأدرّ عليهم الإدرارات الصالحة، وكان يحضر عنده مشايخهم ويقربهم ويبسطهم ويتواضع لهم»[3].

وكانت الخوانق غالباً ما تبنى على نمط مساجد الصلاة غير أنها كانت تحتوي على غرف عديدة كانت بمثابة بيت للفقراء والصوفية أو بيت كبير لأداء صلاة الجماعة أو للقيام بالأوراد والأذكار. ولم يكن في الخانقاه منبر لأنّه نادراً ما أقيمت بها صلاة الجمعة، لأنّ هذه الصلاة كانت تؤدى في أقرب مسجد، وربما أقيمت صلاة الجمعة في بعض الخوانق كخانقاة يكتمر بمصر[4].

---

(1) ابن طولون: **القلائد الجوهرية**، 1/ 303.
(2) المقريزي: **الخطط**، 2/ 414.
(3) ابن الأثير: **التاريخ الباهر**، ص: 171.
(4) المقريزي: م. س، 2/ 245.

وفي بلاد الشام كثرت الخوانق التي كان لها دور في تعليم الراشدين ومن هذه الخوانق خانقاه الدويرية التي أنشئت في دمشق حوالي سنة (401 هـ/ 1009م). وقد أنشأها أبو الفرج حمد بن عبدالله بن علي الدمشقي المقرىء المتوفى سنة (401 هـ/ 1009م)[1].

وفي الخانقاه الشريفية كان الصوفية وطالبو العلم فيها يشتغلون بالحديث وكان من يتولى فيها قراءة البخاري من العلماء الذين كانت تتوافر فيهم شروط علمية تؤهلهم لذلك[2].

ومن الخوانق التي اشتهرت بتعليمها الكبار الخانقاة السميساطية المنسوبة إلى أبي القاسم علي بن محمد بن يحيى السميساطي (453 هـ/ 1061م)[3]. ومن أوائل الذين علموا في هذه الخانقاه الوزير المعروف بالفلكي النيسابوري سعيد بن سهل بن محمد (560 هـ/ 1163م) الذي سمع من عدد من العلماء، وحدّث ببغداد، ثم قدم إلى دمشق ونزل بالخانقاه وجدد فيها وباشر النظر في وقفها[4].

ولقد أنشأ صلاح الدين الأيوبي في بيت المقدس الخانقاة الصلاحية لتعزيز توجهاته لتعميم الثقافة الإسلامية في البلاد التي أخضعها. وكان لهذه الخانقاة دور كبير في مجال الاشتغال بالتعليم، ورفع المستوى العلمي، والثقافي لجميع الناس دون استثناء[5].

وتجدر الإشارة إلى أنّ التعليم بالخانقاة كان تعليماً موجهاً حسب ما يرتئيه الواقف، وشروطه التي يضعها لتنظيم عمل الشيخ ومريديه[6]. فمن الشروط التي وردت في كتاب وقف الخانقاه الصلاحية بالقدس أن يجتمع شيخها ومريديه بعد صلاة العصر ليقرأوا ما تيسر من القرآن ويذكّروا مما حسن من الذكر، وعليهم أيضاً

(1) النعيمي: **الدارس في تاريخ المدارس**، 2/ 146.
(2) عبد القادر بدران: **منادمة الأطلال**، ص: 281.
(3) محمد كرد علي: **خطط الشام**، 6/ 132.
(4) الذهبي: **سير أعلام النبلاء**، 20/ 422.
(5) انظر: ابن خلكان: **وفيات الأعيان**، 7/ 207.
(6) انظر: عبدالغني عبد العاطي: **التعليم في مصر زمن الأيوبيين والمماليك**، ص: 238.

أن يجتمعوا بعد طلوع الشمس من يوم الجمعة ليقرأوا القرآن، وعلى المريدين أن يقرأوا بحضور شيخهم ما تيسر من كلام المشايخ الصوفية[1].

وسواء كان التعليم في الخوانق والربط والزوايا تعليماً موجهاً أم لا، إلا أنّ ذلك لا يغير شيئاً من حقيقة الواقع في هذه المؤسسات، التي كانت تشهد حركة نشطة في مجال تعليم الكبار ـ على الرغم من أنّ بعض المتصوفة كانوا من الفتيان ـ فلقد جهد مشايخ الصوفية في أن يزودوا طلبتهم ومريديهم بالحكمة التي تمكنهم من الوصول إلى المعرفة الحقيقية.

البيمارستان:

البيمارستان: «كلمة فارسية معناها: «المستشفى». وهي مؤلفة من كلمة (بي) ومعناها: (بدون) و(مار) ومعناها: (الحياة أو الحيوية) و(ستان) ومعناها: (مكان) فمعنى الكلمة كلها مكان المرضى»[2]. وقيل أيضاً: «البيمارستان (بفتح الراء وسكون السين) كلمة فارسية مركبة من كلمتين (بيمار) بمعنى: مريض أو عليل أو مصاب و(ستان) بمعنى مكان أو دار فهي إذاً دار المرضى. ثم اختصرت في الاستعمال فصارت مارستان»[3]. وبقيت هذه اللفظة «تطلق على دور العلاج والمرضى إلى أن حلّت مكانها كلمة مستشفى فيما بعد[4].

ويرى البعض أنّ أول بيمارستان اتخذ في الإسلام هي خيمة الرسول ﷺ التي نصبها في مسجده بالمدينة لعلاج جرحى موقعة الخندق. وقد أولى لامرأة تدعى رُفَيْدَة(*) مهمة خدمة المصابين[5].

ويشير المقريزي إلى أنّ أول من بنى البيمارستان في الإسلام هو الوليد بن

---

(1) مركز الأبحاث: **أوقاف وأملاك المسلمين في فلسطين**، ص: 31.
(2) محمد أسعد طلس: **التربية والتعليم في الإسلام**، ص: 116.
(3) أحمد عيسى: **تاريخ البيمارستانات في الإسلام**، ص: 4.
(4) محمد منير مرسي: **التربية الإسلامية أصولها وتطورها في البلاد العربية**، ص: 110.
(*) رفيدة الأسلمية، مجاهدة كانت تداوي الجرحى وتحتسب بنفسها على خدمة من كان به ضيعة من المسلمين.
(5) أحمد عيسى: **تاريخ البيمارستانات في الإسلام**، ص: 9.

عبد الملك سنة (88 هـ/ 707م). وجعل فيها الأطباء وأجرى عليهم الجرايات، وعمل دور الضيافة وأمر بحبس المجذومين والعميان، وكانوا يودعون في هذه البيمارستانات الأدوية والعقاقير والأكحال ويجعلون فيها الأطباء والكحّالين والجرّاحين والخدم، وكل ما تحتاج إليه المشافي من عود وآلات. وربما جعلوا في بعضها خزائن الكتب، وغرفاً، ودواوين، ومعاهد لتدريب الطلاب والصيدلة وما إليها[1].

فالبيمارستانات إذن كانت أماكن لعلاج المرضى ودراسة الطب. فلقد أدرك المسلمون «مدى ما تمتاز به هذه المستشفيات من صلاحية لتعليم الطب حيث الحالات المرضية ماثلة أمام أعين المتعلمين والأدوية والعلاجات قريبة ومتوافرة فاتخذوا منها إلى جانب قيامها بمعالجة المرضى كليات طب أدت لهذا العلم أجل الخدمات»[2].

وكان كل مستشفى يحتوي على «إيوان كبير[*] للمحاضرات يجلس فيها كبير الأطباء، ومعه الأطباء والطلاب، وبجانبهم الآلات، والكتب فيقعد التلاميذ بين يدي معلميهم بعد أن يتفقدوا المرضى وينتهوا من علاجهم، ثم تجري المباحث الطبية والمناقشات بين الأستاذ وتلاميذه، والقراءة في الكتب الطبية. وكثيراً ما كان الأستاذ يصحب مع تلاميذه إلى داخل المستشفى ليقوم بإجراء الدروس العملية لطلابه على المرضى بحضورهم كما يقع اليوم في المستشفيات الملحقة بكليات الطب»[3].

ويبدو أن حركة البيمارستانات نشطت في العصر العباسي مع بداية القرن الرابع الهجري عندما أشار سنان بن ثابت بن قرة (331 هـ/ 943م) على المقتدر (320 هـ/ 932م) بأن يتخذ بيمارستان ينسب إليه، فأمره باتخاذه، فاتخذه له في باب الشام وسماه البيمارستان المقتدري وأنفق عليه من ماله في كل شهر مائتي دينار»[4].

---

(1) المقريزي: **الخطط**، 2/ 405.

(2) محمد عبدالرحيم غنيمة: **الجامعات الإسلامية الكبرى**، ص: 118.

(*) قاعة كبيرة.

(3) مصطفى السباعي: **من روائع حضارتنا**، ص: 160.

(4) ابن القفطي: **إخبار العلماء بأخبار الحكماء**، ص: 133.

وممن خدموا به جبرائيل بن عبد الله بن يختيشوع (396 هـ/ 1004م) الذي أصبح عالماً فاضلاً ولازم العلاج والتعليم به[1].

وفي أول محرم من السنة عينها «فتح سنان بن ثابت بيمارستان السيدة الذي اتخذه لها بسوق يحيى وجلس فيه ورتب المتطببين»[2].

ومن البيمارستانات التي كانت فيها حلقات للتدريس البيمارستان العضدي. فلقد كان الفيلسوف الطبيب أبو الفرج عبد الله بن الطيب (435 هـ/ 1043م) «يقرىء صناعة الطب في البيمارستان العضدي ويعالج المرضى فيه»[3]. وكذلك فإن إبراهيم ابن بكس (360 هـ/ 971م) الذي كان ماهراً في علم الطب بقي بعد أن كفّ بصره يحاول صناعة الطب ويزاولها رغم عماه «وكان يدرس صناعة الطب في البيمارستان العضدي... وكان له منه ما يقوم بكفايته»[4].

وكان البيمارستان النوري الذي أسس سنة 569 هـ/ 1173 م من أشهر المؤسسات الطبية والعلمية. ومن أبرز الذين درّسوا فيه أبو المجد بن أبي الحكم الباهلي (570 هـ/ 1174 م) الذي كان السلطان نور الدين زنكي «يحترمه ويعرف مقدار علمه وفضله. ولما أنشأ الملك العادل نور الدين البيمارستان الكبير جعل أمر الطب إليه فيه... وكان يتردد إليه ويعالج المرضى فيه»[5]. وكان بعد فراغه من تفقد المرضى وعلاجهم «يأتي ويجلس في الإيوان الكبير الذي للبيمارستان، وجميعه مفروش، ويحضر كتب الاشتغال. وكان نور الدين رَحِمَهُ اللَّهُ قد وقف على هذا البيمارستان جملة من الكتب الطبية... فكان جماعة من الأطباء والمشتغلين يأتون إليه ويقعدون بين يديه، ثم تجري مباحث طبية ويقرىء للتلاميذ. ولا يزال معهم في اشتغال ومباحث ونظر في الكتب مقدار ثلاث ساعات ثم يركب إلى داره»[6].

---

(1) ابن أبي أصيبعة: **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، 2/ 72.
(2) ابن القفطي: م. س، ص. ن.
(3) ابن أبي أصيبعة: م. س، 2/ 235.
(4) ابن أبي أصيبعة: **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، 2/ 242.
(5) ابن أبي أصيبعة: م. ن، 3/ 256.
(6) ابن أبي أصيبعة: م. ن، ص. ن.

ومن الذين اشتغلوا وعلّموا في البيمارستان النوري الشيخ مهذب الدين عبدالرحيم بن علي بن حامد ويعرف بالدخوار (628 هـ/ 1230 م) «وولاه السلطان... في ذلك الوقت رياسة أطباء ديار مصر بأسرها وأطباء الشام... ورسم أنّه يقيم بدمشق، وأن يتردد إلى البيمارستان الكبير الذي أنشأه الملك العادل نور الدين بن زنكي ويعالج المرضى به»[1]. وخلال إقامته بدمشق أخذ عنه الكثيرون، وكان ابن أبي أصيبعة واحداً منهم. فلقد شرع المهذب ـ حسب ما يذكر ابن أبي أصيبعة ـ «في تدريس صناعة الطب، واجتمع إليه خلق كثير من أعيان الأطباء وغيرهم يقرأون عليه وأقمت بدمشق لأجل القراءة عليه... وكان طلق اللسان، حسن التأدية للمعاني، جيد البحث، لازمته أيضاً في وقت معالجته للمرضى بالبيمارستان فتدربت معه في ذلك وباشرت أعمال صناعة الطب»[2].

ويلاحظ أن تعليم الطب، كان يقوم على أسس تجريبية عملية دقيقة، فلم يقتصر دور البيمارستانات على الاستشفاء ومعالجة المرضى وإنما تعدى ذلك لتصبح هذه المؤسسات مراكز لتعليم الطب والبحث العلمي، على أسس نظرية وعلمية وتجريبية دقيقة لأن إدراك الحقيقة لا يتأتى إلا من خلال تلازم النظرة العلمية والتجربة العملية. ولقد لعبت مكتبات البيمارستانات دوراً بارزاً في هذا المجال.

المدارس:

إذا كانت الكتاتيب قد وجدت أصلاً لتعليم الصغار، فإن المدارس التي ظهرت في المجتمع العربي الإسلامي بعد سنة 400 هـ/ 1008م أنشئت خصيصاً لتعليم الكبار. وفي هذه المرحلة «أصبحت المدرسة منظمة رسمية من منظمات الدولة يتخرج منها عمال الدولة وموظفوها. وأصبحت الدراسة فيها دراسة رسمية تسير وفق لوائح وقوانين شبيهة بتلك التي نعرفها اليوم»[3].

ولا ريب أنّ الفضل الأكبر في تحقيق هذا الاتجاه يعود لنظام الملك الذي

(1) ابن أبي أصيبعة: م. ن، 3/ 394 ـ 395.
(2) ابن أبي أصيبعة: **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، 3/ 394 ـ 395.
(3) عبد الغني عبود: **في التربية الإسلامية**، ص: 115.

ارتقى بتعليم الكبار من خلال نشره المدارس في طول البلاد وعرضها. وكانت هذه المدارس بحق «جزءاً من حركة المجتمع الإسلامي ومتصلة بنبض الحياة في هذا المجتمع ومسؤولة مسؤوليات (الجماعة) الإسلامية سواء كانت هذه الجماعة هي الدولة أو الرأي العام»[1].

ويبدو أنّ نظام المدارس ربط عجلة تعليم الكبار ـ ضمن هذه المؤسسات ـ بالدولة في ذلك العصر. وكان هذا النظام بنظر من التزموا مبدأ الحرية في طلب العلم نكسة لأساليب تعليم الكبار، التي ألفها المسلمون في المساجد والجوامع ومراكز التعليم الأخرى، حيث كانت مقدرة المدرس العلمية هي التي تعزز مكانته وموقعه في حلقته أو مسجده، بينما في المقابل كان صاحب المدرسة هو الذي يعيِّن المدرس أو يعزله كما وأنّه هو الذي يوجه الدراسة الوجهة التي يرتضيها. وهذا ما لم يكن ممكناً تحقيقه في أماكن التدريس الأخرى. ولذلك لم يكن مفاجئاً أنّ علماء ما وراء النهر لما بلغهم تأسيس المدارس ببغداد «أقاموا مآتم العلم وقالوا: كان يشغل به أرباب الهمم العليّة والأنفس الزكية. ويقصدون العلم لشرفه والكمال به فيأتون علماء ينتفع بهم وبعلمهم، وإذا صار عليه أجرة تدانى إليه الإفساد وأرباب الكسل، فيكون سبباً لارتفاعه»[2].

ويبدو أنّ هذا النمط من التفكير لم يدم طويلاً بعد نشوء المدارس، إذ سرعان ما أثبتت هذه المؤسسات حسناتها لكل من الطالب، والمدرس على حد سواء، وذلك بسبب مكانتها وكبير شهرتها ولكونها تابعة للجهات الرسمية، والتي على ما يبدو كانت تجزل الرواتب والمِنح للمدرسين والوعاظ، والموظفين بهدف ترغيبهم وتشجيعهم على الاستمرار في البذل والعطاء.

ومما لا شك فيه أنّ المدارس قد نظمت التعليم بشكل أفضل مما كان عليه سابقاً فقد أصبح الطالب مستقراً في مكان واحد ولمدة طويلة يستطيع بها أن يتزود بعلم جم من غير عناء التنقل، كما تخلص من مشكلة وفاة الأستاذ قبل إكماله الدراسة المنهجية عليه حينما أصبحت المدرسة هي المسؤولة عن استقدام المدرس،

(1) عبدالغني عبود: **مذكرات في تاريخ التربية**، ص: 170.
(2) حاجي خليفة: **كشف الظنون**، 1/ 22.

يضاف إلى ذلك أن استقرار أسس العلوم الفقهية في كتب معتمدة، وتوافر تراث كتابي ضخم قد يسر اتخاذ المقررات التدريسية، فكان المدرس يدرس كتاباً مقرراً لأحد العلماء الكبار أو يعد محاضرات بموضوع الدرس تسمى: (تعليقة) تشمل جميع المدة التي يقضيها الطالب في المدرسة»[1].

والجدير ذكره أنّ المدرسة كانت محطة بارزة في إطار حركة تعليم الكبار في المجتمع العربي الإسلامي. ولقد كان دورها مكملاً لدور باقي المؤسسات التعليمية وليس بديلاً عنه، حيث ظلت مجالس العلم والمناظرة في المسجد والدور والقصور والمكتبات، والبيمارستانات وغيرها من أماكن التعليم تلعب دوراً بارزاً وهاماً في التعليم الإسلامي بشكل عام وتعليم الكبار بشكل خاص.

وخلاصة القول: إنّ تعليم الكبار لم يقتصر على الأمكنة سابقة الذكر لأنّ المسلمين كانوا يستغلون كل مناسبة ومكان لتلقي العلم. فكانت حلقات العلم تعقد حتى في الضواحي والأسواق والطرقات كما في رواية القاضي أبي الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري (450 هـ/ 1058م) الذي حدثه أبوه قائلاً: «كنا نحضر مجلس أبي إسحاق إبراهيم بن علي الهجيمي (351 هـ/ 962م) للحديث، فكان يجلس على سطح له ويمتلىء شارع بالهُجيم بالناس يحضرون للسماع ويبلغ المستملون عن الهجيمي. قال: وكنت أقوم في السحر فأجد الناس قد سبقوني وأخذوا مواضعهم. وحسب الموضع الذي يجلس الناس فيه وكُسّر فوجد مقعد ثلاثين ألف رجل»[2].

والحقيقة أنّ الناس في العهود الأولى للإسلام كانوا لا يترددون ـ أينما وجدوا ـ في أن يتذاكروا بينهم الحديث، أو آيات القرآن الكريم حتى لا ينسوا شيئاً مما حفظوه، وليبقوا على صلة وثيقة بكتاب الله وسنة نبيه الكريم. ومع مرور الأيام لم يقتصر هذا النشاط التعليمي التعلمي على العلوم الدينية وإنما تعداه لباقي العلوم سواء الدينية أو الدنيوية منها.

---

(1) بشار عواد معروف: «**مؤسسات التعليم في العراق بين القرنين الخامس والسابع الهجريين**»، في **التربية العربية الإسلامية المؤسسات والممارسات**، 2/ 396.

(2) السمعاني: **أدب الإملاء والإستملاء**، ص: 18.